الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة أبي بكر بلقايد

كلية الآداب و العلوم الإنسانية
و العلوم الاجتماعية

قسم : الثقافة الشعبية
شعبة : الأنثروبولوجيا

رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير تحت عنوان :

صورة الغرب في كتابات
و تراث المغاربة خلال القرنين 18 م-19م
الجزائر نموذجا

من إعداد الطالب :
بليفة مليود

لجنة المناقشة

الدكتور عبد الحميد حاجيات رئيسا
الدكتور عكاشة شايف مشرفا
الدكتور محمد بشير عضوا
الدكتور زين الدين مختاري عضوا

السنة الجامعية 2002/2001

إهداء

إلى روح والدي ووالداتي وعمي طيب الله ثراهم

إلى رفيقة الدرب في الحياة زوجتي

إلى أبنائي الأعزاء أسامة، محمد أشرف

إلى كل رفقاء العمل إداريين، موظفين، عمال...

شكر وتقدير

أتوجه بخالص عبارات الشكر والتقدير إلى أستاذي
المشرف شايف عكاشة على مساعدته وتوجيهاته
ودعمه لي لإنجاز هذه الرسالة المتواضعة،
كما أشكر كل الأساتذة والزملاء والأصدقاء
الذين لم يبخلوا علي بالمراجع المفيدة،
وإلى كل من مد لي يد المساعدة.

ميلود

مقدمة:

إذا كان الإنسان اجتماعي الطبع، فذلك لعدم قدرته على العيش بمفرده دون الجماعة، هذه الأخيرة التي تبقى في حاجة لجماعات أخرى للتعامل معها حتى تضمن بقاءها من خلال عمّلية الأخذ والعطاء، وإذا كانت هذه الجماعات تشكل مجتمعاً فلاشكّ أنّ هذا الأخير بدوره بحاجة إلى مجتمعات أخرى للتفاعل معها في جوانب الحياة المختلفة ليضمن حاجات أفراده وجماعاته، ومن خلال هذا عملية التعامل والتفاعل وبمرور الوقت تُكوِّن هذه المجتمعات فكرة أو وجهات نظر مختلفة عن بعضها البعض والتي لا تلبث لتتحوّل وترتسم على شكل صورة في أذهان الأفراد وذاكرة المجتمعات.

في الواقع قد تكون صورة شعب أو أمة عن غيرها من الشعوب والأمم بعيدة بل مناقضة للواقع، وقد تكون واقعية إلى حدّ ما وفي هذا السياق العام يندرج موضوع بحثنا «صورة الغرب في كتابات وتراث المغاربة خلال القرنين: 19/18». وكون الموضوع شاسعا جداً، يتطلب الوقت الطويل والمراجع الكثيرة عن جميع أقطار المغرب العربي، وبتوجيه من أساتذتي بالمعهد، حاولنا حصره نموذجياً بالتركيز على الجزائر لمعطيات تاريخية موضوعية، وذلك كونها تتمتع وتتصف، إن لم نقل تنفرد، بالدور القيادي بالإقليم المغاربي في الفترة المخصصة للبحث وما سبقه، ولمعالجته واستكماله من كل الجوانب أردنا الإلمام بها معتمدين

في ذلك على المنهج التاريخي التحليلي للوثائق التاريخية المتعلقة بالحقبة الزمنية المخصصة للبحث، والمنهج الوصفي في وصف طبيعة العلاقات والمعاملات التي سرت بين الشعوب وذلك تماشياً مع ما تفرضه طبيعة الموضوع من منهج وأسلوب.

وظل هذا الموضوع في غفلة، إن لم نقل في طيّ النسيان لدى الباحثين المغاربة إذا استثنينا تلك الدراسات التي تناولته في ميادين أخرى (ميادين العلاقات الاقتصادية والسياسية أو في فترات زمنية مغايرة) والتي كانت في غالبها دراسات قطرية مستقلة والتي قلّما تم الربط فيما بينها على أساس إقليمي إن لم نأخذ بعين الاعتبار الدراسات التي كان منطلقها ومرجعها قوميّا عربيّا (علاقة المشرق بالمغرب) أو في نطاق العالم العربي الإسلامي، (علاقة المغرب العربي بالمشرق العربي والعالم الإسلامي)، وهنا بإمكاننا أن نتساءل: ما الهدف المتوخى من هذه الدراسة؟ وما الدواعي إلى ذلك؟ للإجابة عن ذلك يُمكن القول أنّ هناك جملة من الدوافع التي كانت وراء اختيارنا لهذا الموضوع منها:

كثرة المراجع الغربية التي تناولت الموضوع بالصورة العكسية ومنها كتابات المستشرقين، والتي لا تخلوا من النزعة الذاتية والإيديولوجية، والتي تفتقر للموضوعية.

النقص الكبير في مكتباتنا، وقد لمسنا ذلك أثناء عملية الجمع والتنقيب عن المصادر والمراجع، الأمر الذي أدى بنا إلى اللجوء إلى المكتبات الأجنبيّة.

محاولة ضبط الصورة العامة للغرب خلال الفترة الزمنية التي يدور حولها البحث إضافة إلى ذلك نجد جلّ الدراسات الغربية قد جسدت حياة المغاربة وأنماط عيشهم صورة انطباعية ذاتية موروثة عن الحروب الصليبية، وذلك ما حفزنا على الخوض في هذا الموضوع بقصد معرفة المرجعية والجوانب التي كان ينظر منها المغاربة للغرب، ومحاولة تتبع الصورة التي تكونت لديهم عن الأوربيين. هذا من جانب الدواعي والدوافع.

أما فيما يخص أهداف البحث، فإننّا نريد من خلاله توضيح رؤية المغاربة في تلك الفترة للإنسان الغربي ومن خلاله للغرب بشكل عام (الرجل، التاجر، الحاكم، رجل الدين، رجل السياسة الأوروبي)، وهذا معناه الكشف عن شخصيتهم من خلال آرائهم في غيرهم، كما يسمح لنا ذلك بالوقوف على جوانب النقص في نظرة المغاربي للغرب آنذاك، ويعني هذا النقص الخلل الذي طرأ على الصورة التي عرفها المغاربي في حقبات سابقة بفعل عوامل كثيرة ولا يعني بأي حال من الأحوال حكما قاطعا على طبيعة تلك الصورة وحقيقتها، وإدراك النقص هو بداية إصلاحه، ولا يتم ذلك إلا إذا تمعنا في أصل تكوين الصورة، وإبراز ما يُعاب عن

الغرب من مساوئ ارتكبها في حق شعوب المغرب ومختلف الممارسات التي قام بها ضدهم.

ويهدف كذلك إلى الكشف عن بعض الحقائق التي من شأنها الإسهام في بناء شخصية الفرد المغاربي وتُحمله المسؤولية نحو الوطن العربي عامة.

ولدراسة هذا الموضوع، حاولنا حصره في خطة يمكنها أن تُعطيه حقه من الدراسة، فقسمناه إلى أربعة فصول رئيسية:

حاولنا في الفصل الأول بعنوان "العوامل المؤثرة في تكوين الصورة" تقديم تعاريف المصطلحات الرئيسية للموضوع بشيء من الإيجاز، مع إبراز مكانة المغرب العربي في محيطه الإسلامي الأوربي قبيل وأثناء الحكم العثماني، والأوضاع العامة التي ميزت هذه الحقبة والتي ساهمت في تشكيل معالم الصورة وتأثير الأوضاع العامة في بناء معالمها.

وخصّصنا في الفصل الثاني الحديث عن طبيعة العلاقات وتنوّعها في مختلف المجالات بين شعوب المغرب العربيّ من جهة وبينها وبين الغرب من جهة أخرى وفيما بين الشعوب الغربية من جهة ثالثة، لنخلص باستظهار أثر الحكم العثمانيّ في تنظيم العلاقات مع الغرب، ولنستنتج صورة الأوربي الأجنبي قبل الاستعمار سنة 1830 وأثناءه.

وعمدنا في الفصل الثالث إلى تحليل الجوانب الاجتماعية والأنثروبولوجية المختلفة التي مسّها التأثير، والتي ساعدت المغاربة على كسب صورة متميّزة عن الغرب عامّة من خلال فرص الاحتكاك به والتعامل مع شعوبه، بفعل الاستعمار والمعاملات التجارية، ومقاومة الاستعمار خاصة في الجزائر.

وفي الفصل الرابع قمنا بتحديد أهمّ الإشارات للكتابات الأدبيّة في الشعر والنثر والخطب والرسائل وغيرها، التي تحدّد مواقف المغاربة ونظرتهم للغرب والتي تعطينا صورا مهمّة عن تعامل المغاربة مع الأوربيّين وذلك استنادا للزاد الأدبي الموروث.

وفي هذا الفصل وجدنا أنّه من الضروري تخصيص ملحق خاص ببعض الوثائق التي استندنا عليها في دراستنا هذه، ثم عمدنا إلى خاتمة تجمع أهمّ محاور الموضوع ونتائجه.

وتجدر الإشارة إلى أن الكتابات التاريخية لا تشير صراحة إلى مفهوم الصورة التي نحن بصدد البحث فيها، لذا من الضروري توضيح مفهومها وكيفية تشكلها، فما هي الصورة التي نريد تبنيها ودراستها؟

وقصد البحث عن صدق الصورة أو تمثيلها للواقع ومطابقتها له في كلّ شيء أمر صعب، والبحث عنها ضرب من العبث، والأسباب التي تجعل الصورة غير مطابقة للواقع عديدة نجد منها:

- تغير حياة الأفراد والجماعات: وذلك بتطور نمط الحياة اليومية في كامل المجالات، وتطور الحياة الفكرية والثقافية، واكتساب أفكار جديدة والتخلي عن أخرى قديمة، وبمعنى أشمل: إنّ الإنسان كائن حي غير جامد في حركة وتغير وتطور مستمر.

- ومن جهة أخرى، تعتبر نظرة شخصين لشيء واحد متفرقة وذلك ناتج عن المستوى الاجتماعي والفكري والمزاجي والمادي ومذهب كليهما في الحياة، وإن كان هذا حقيقة علمية فلا نبالغ لو قلنا إنّ نظرة أشخاص أو جماعة لشعب أو مجموعات تكون أعمق وأوسع وأشد تعقيدا.

- وتحديد صورة شعب في موضوعات من هذا النوع وبهذه الشمولية تعتمد على بعض العناصر التي لابدّ من مراعاتها نتيجة للطريقة التي حصل بها التأثير والتأثر، حيث تراعى الطرق التي تكوّنت بها أفكار أمة عن الشعب المؤثر، وإبراز وسائل الاتصال التي تمت بها عملية التأثير والتأثر، مثل الحروب التي دارت بين الشعبين، الرحلات المباشرة وغير المباشرة بين عناصر الشعبين، التبادل التجاري، وكذلك دراسة حياة الأدباء والعلماء والساسة والرحالة وكلّ من استُند على إنتاجه في استنباط الصورة والبحث عن طريقة إدراكهم للطرف الآخر مثل الزيارات المتبادلة والمشاهدة بالمشاركة في الحروب.

- أمّا عن الطريقة التي نتجت عنها عملية التأثير والتأثر فهي فرض الوجود من قِبل الشعب المؤثر، والأدباء الذين صوَّروا الشعب المؤثر لم يزوروا أو يرحلوا إلى البلد الذي أثر فيهم، بل حلّ إليهم العنصر المؤثر بنفسه وعايشهم في ديارهم.

الفصل الأول

العوامل المؤثرة في تكوين الصورة

1 - تــــعـــــريـــــف الـــــصـــــــورة

للتعريف بمصطلح صورة ووضعها في إطارها ضمن مجال الدراسات نقول إنّ التعاريف متعدّدة بتعدّد الاتجاهات والمدارس يمكن التطرق لبعضها:

الصورة بمعنى **Imago** استُعملت أولاً من طرف جانغ **Jung** وهي تدل على تنظيم لا شعوري أساسي ينظم نموذج العلاقات الحقيقية والخيالية مع الأب والأم والأخ والأخت، وبارتلت **Bartlet** 1932 في تعريفه للصورة يقول: قد يعبر الفرد عن الصورة وهو متأثر بنفسه الداخلية أي أنه أثناء عملية التصوير تتدخل مؤثرات داخلية في التأثير على محتوى الصورة التي يُكوِّنها أو يرسمها لمن حوله، ويفسر مارليو **Marlieu** 1976 الصورة بأنها عامة وشاملة وتحمل شكلاً ووظيفة ومعنى، الأمر الذي أعطى موضوعاً للصورة سواء كانت هذه الصورة حقيقية أم في حلم كما يذهب بالقول: «إنّ الصورة عمل لا شعوري لا تتوفر له الوسائل الخاصة به قبل الإنجاز، لا يمكن تمييز السيرورة التي تمر بها الصورة أثناء إنجازها وهذه الصورة مختلفة باختلاف المجالات التي تتكون فيها، وأنّ لهذه الصورة خاصية معقدة تكمن في حركيتها ووجدانيتها»[1] وأنها تتكوَّن حسب سمات الشخصية للفرد، فالميول تأخذ شكلاً مقابلاً أثناء فترة التصوّر، فالرسام عند انتهائه من لوحته يحصل على الإحساس الذي كان يبحث عنه»[2].

(1) معجم مصطلحات التحليل النفسي، مفهوم الصورة.

(2)Pierre Fideda : Dictionnaire de la polychanalyse. Librairie Larousse, Paris 1974.

كما يأتي تعريف لابلانش وبونتاليس **Laplanche et Pantalis** للصورة فيقولان: «إنها النموذج اللاواعي الأول للشخصيات، الذي يُوجه أسلوب إدراك المرء للآخرين بشكل انتقائي يرهن هذا النموذج انطلاقاً من العلاقات الواقعية»[1].

أمّا سيمون جون **Simon Jeune** يُوضح علاقة صور الشعوب بالأدب المقارن فيقول: «التأثير الذي سنتحدث عنه مختلف، ورغم وقوعه دوماً عند الأدباء فقط فإنه ليس من نفس النوع، فلم يعد ثمة عمل أدبي يُحدث تأثيراً، بل شعب بأكمله، والبلد كله يُحدث التأثير وأدباء شعب آخر يتلقون "الصورة أو الظل"»[2].

ومن التعاريف الأكاديمية التي قُدِّمت عن مصطلح الصورة والتي نفضل الأخذ بها:

أ- الصورة تصوّر فردي أو جماعي تدخل فيه عوامل ثقافية وشعورية، موضوعية وذاتية.

ب- الصورة إذاً تمثيل يعتمد على معلومات شبه ثابتة ذات طابع عام ومعقول، ولها شيء من الواقع الملموس.

هذا من ناحية التعاريف لكلمة صورة أمّا من ناحية الإطار فصور الشعوب تُصنف إلى نوعين:

1 معجم مصطلحات التحليل النفسي، ص 87.

(2) Littérature Générale et littérature Comparée, p 49

أ- ذات انعكاسات لها تأثيراتها على شعب في ميدان كتاباته المختلفة وهذا ما يكون صورة شعب في أدبه وثقافته الخاصة وبالتالي لا يتعدّى هذا النوع من الدراسات الإطار القومي واللغوي مع إعطاء أهمية للبحث عن القدرات الفنية للأديب في تناول الموضوع.

ب- صورة شعب في أدب[1] ثقافة شعب آخر: وفي هذا النوع من الدراسات الأمر مغاير تماماً، فهي تعتمد على اختلاف المكان الجغرافي والإطار اللغوي، أي هناك شقان، الأول يُمثل صورة شعب أو بلد، والثاني يُمثل مجال الانعكاس والتأثير ويكون مغايراً للأول من ناحية المكان والانتماء الوطني على الأقل.

وهناك أمثلة كثيرة نذكر منها على سبيل المثال: صورة روسيا في الحياة الثقافية الفرنسية، صورة الجزائري في المراسلات العسكرية الفرنسية، صورة الروسي في الأدب الإنجليزي، ونلاحظ أنّ هناك انتقال الصورة من الروسية إلى الفرنسية ومن العربية إلى الفرنسية ومن الروسية إلى الإنجليزية، وهذا كله يُبين لنا عملية الاحتكاك والتواصل سواء كان بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ممّا يُخلف التأثير والتأثر، وهذا التخصص في علم الصورة الذي يُعتبر من التخصصات الحديثة النشأة مقارنة مع باقي التخصصات العريقة.

وتتكون الصورة من خلال عوامل الاحتكاك والتبادل والتأثير والتأثر وترسخ في الذاكرة الفردية والجماعية للشعوب والأمم في فترة زمنية معينة قد تطول أو تقصر وتبنى على ضوئها معاني التبادل واتخاذ المواقف والقرارات وتفيد كثيرا في فهم مرجعية تلك المواقف والقرارات وتترجم مستوى العلاقات وطبيعتها بين الشعوب.

---

[1] الأدب العربي الحديث نماذج ونصوص، ص 66.

2- عامل الانتماء:

1/2- إلى المغرب العربي:

بداية، يجدر بنا تحديد ما القصد بالإقليم المغاربي أو المجال المغاربي، في الواقع إلى غاية السبعينات من القرن العشرين كان المجال المغاربي يشمل ثلاثة دول من الناحية السياسية الجغرافية تونس والجزائر والمغرب الأقصى، وكان يُفسِّر وحدة هذا المجال عاملان هما: التجربة التوحيدية التاريخية محاولات المرابطين والموحدين، والخضوع للاستعمار الفرنسي المشترك، «كما أنّ كلمة مغاربي هي حديثة الاستعمال وهي مشتقة من اللفظ الفرنسي **Maghrébin** للتمييز بين القصد التقليدي لكلمة المغرب وما أصبحت تعنيه اليوم، إذ قديماً كان المقصود بالمغرب تلك الأمصار والبلاد الواقعة غرب حوض النيل»[1]، خلافاً لبلدان المشرق، أمّا اليوم باعتبار أنّ لفظ المغرب أصبح مقصوراً على تسمية القطر الذي يحدّ الجزائر غرباً، ولجأ الساسة والدارسون إلى اعتماد نعت المغاربي أو المغاربية للإشارة إلى الدول الثلاثة بل أكثر من ذلك، تتجه الصفة اليوم إلى الامتداد على مجال أوسع من ذلك لتضم لها كلّ من القطر الليبي والموريتاني في استجابة لطموحات مجتمعات كلّ هذه البلدان تحت أسماء مثل: المغرب الكبير، المغرب العربي.

2/2- إلى شعوب المتوسط:

لقد بذلت مجهودات عديدة لدراسة الحياة الثقافية والعلمية لدول المغرب العربي في العصور الحديثة ومن هذه الدراسات والبحوث: دراسات الأساتذة أحمد عبد السلام من

[1] بحوث ووثائق في التاريخ المغربي، ص 52.

تونس وأبو القاسم سعد الله من الجزائر ومحمد حجي والمنوني ومزين من المغرب الأقصى، لكن ميدان العلاقات الثقافية بين أقطار المغرب العربي وبين بقية البلدان العربية الإسلامية مازال يتطلب جهود الباحثين والمهتمين بالتأريخ للعلاقات العربية عموماً بما في ذلك العلاقات التجارية والتي لم تحض هي أيضا بما فيه الكفاية من الدراسة.

ولعلّ ما يدفعنا إلى الاهتمام بقضية التواصل الثقافي بين المغرب العربي ومشرقه هو قدم هذا التلاقح والاحتكاك العلمي والفكري واستمرارهما عبر العصور. فلئن تعطلت الاتصالات السياسية والاقتصادية أحياناً فإنّ العلاقات الثقافية بين المسلمين في الشرق وبين المغاربة لم تنقطع وظلت الثقافة العربية الإسلامية القناة الرئيسية والخيط الرابط بين مختلف البلدان العربية والإسلامية.

وتزداد أهمية دراسة هذه العلاقات من الناحية التاريخية إذا ما علمنا مدى غزارة المادة التاريخية المتوفرة عن هذا الموضوع.

فإلى جانب المصنفات التاريخية المتداولة وخاصة منها أدب الرحلة، هناك التأريخ للحياة الفكرية وللتواصل الثقافي بين البلدان العربية، ولابدّ أن يعتمد على أنواع أخرى من المصادر، نخص بالذكر منها ما يتصل بالحياة الطرقية من مناقب وأوراد وأذكار لانتشار هذه الظاهرة في المشرق والمغرب وتمتينها للعلاقات الروحية.

فضلاً عن ذلك لابدّ من أن تتوجه الأنظار إلى الفهارس والإجازات لما تحتوي عليه من معلومات على غاية من الأهمية حول العلماء والفقهاء وطرق التعليم، كما لا

يفوتنا الإشارة إلى أنواع أخرى من المصادر كالكناشات بالنسبة للمغرب العربي والتذاكر بالنسبة للمشرق العربي، والتي تزخر بالمعلومات حول حياة العلماء وتنقلاتهم وآرائهم وكذلك الشأن بالنسبة للوثائق العائلية الخاصة، من عقود ملكية أو تحبيس للكتب؛ فقد كانت لبعض العائلات العلمية في المغرب العربي مكتبات خاصة.

إنّ وفرة المصادر والوثائق التاريخية المتعلقة بالحياة الفكرية عموماً وبالتواصل الثقافي بين المغرب العربي والمشرق بصفة خاصة لا تُمكننا هنا –لضيق المجال– من الإحاطة بمختلف جوانب المسألة واستنفاذ البحث فيها، فركزنا على أهم التواصل الثقافي، وحافظنا عليه وذلك بين دول المغرب العربي وبين بقية الدول العربية الإسلامية، كما سنُحاول التوقف عند أهم المراكز الثقافية والعلمية والتي كانت تستقطب عدداً هاماً من المغاربة والمشارقة، ولا يُمكن لنا هنا بطبيعة الحال تعداد العلماء وحصرهم وإنما سنكتفي بذكر الأعلام الذين تحوّلوا إلى رموز التواصل الثقافي بين المغرب العربي ومشرقه خلال العصور الحديثة.

3/2- إلى المشرق:- تأثير الرحلات إلى الحجاز:

من الدوافع الملحة لانتقال المغاربة إلى المشرق العربي نجد العامل الديني المتمثل في أداء فريضة الحج، و طلب العلم والجهاد في سبيل تحصيله، فقد كان ركب الحج المغاربي ينطلق سنوياً من فاس في أواخر جمادى II ليصل إلى القاهرة في حدود النصف الثاني من رمضان ومنها إلى البقاع المقدّسة، وذلك بعد رحلة طويلة عبر الجزائر

والجنوب التونسي وطرابلس، ولئن كانت نسبة هامة من الحجيج المغاربة تُوفق بين الأغراض الدينية والدنيوية في هذه الرحلة بالمساهمة في التبادل التجاري بين المغرب العربي ومشرقه، فإنّ نسبة أخرى من الحجيج المغاربة كانت تُكرّس جهودها للاستفادة العلمية عن طريق ما يُلقى من دروس في مختلف المراكز الواقعة على طريق الحج، أو عن طريق شراء الكتب والمخطوطات للاستفادة منها أو الاتجار بها وذلك فضلاً عن ربط صداقات، والاتصال المباشر بين مختلف العلماء أو مشايخ الطرق الصوفية والمريدين من الحجيج.

أمام كثرة العلماء المغاربة الذين تردّدوا على الحجاز والشرق العربي عموما، واتصلوا بعلمائه يُمكن أن نبدأ بذكر العلماء الذين خلّدوا رحلاتهم الدينية والعلمية بتدوين ما شاهدوه وما أثر فيهم، ليس فقط في الحجاز ولكن كذلك في مختلف المدن والمحطات الواقعة على طريق الحج.

قد عُرفت هذه الكتابة بالرحلات الحجازية وتُعتبر من القرائن الهامة عن ذلك التواصل الثقافي بين المغرب العربي ومشرقه.

فلقد انتشر هذا الجنس الأدبي بين علماء المغرب الأقصى بصفة خاصة وبصفة مبكرة مقارنة مع علماء الجزائر وتونس حيث لم يظهر هذا الجنس ولم يتطور إلاّ بداية من القرن الثامن عشر.

فمن المغرب الأقصى يُمكن الإشارة إلى بعض الرحلات كرحلة الحسن الوزان الفاسي إلى المشرق والحجاز سنة 1517 ثم رحلة العياشي الشهيرة ومن بعدهما رحلة عبد المجيد الزبادي فالتاودي بن سودة الذي قام بفريضة الحج سنة1767، فرحلة الزياني ثم رحلة محمد العربي الشرفي المسماة **بالرحلة العريضة لأداء الفريضة** فرحلة الطيب بنكيران المعروفة **بالرحلة الفاسية**، وليست هذه إلاّ عينات من بين عدد كبير من رحلات علماء المغرب الأقصى إلى الحجاز خلال العصور الحديثة، وهي تُعبّر عن وجود تيار هام من العلماء والأفكار واحتكاك دائم بين المغرب الأقصى والشرق العربي عموماً.

أمّا من الجزائر فقد ذكر الأستاذ سعد الله عدداً من الرحلات الحجازية للعلماء الجزائريين[1]، ومنها الرحلات الشعرية كقصيدة عبد الله بن عمر البسكري وقصيدة محمد بن منصور العامري التلمساني ت 1748 وقصيدة عبد الرحمن بن محمد بن الخروب المحاجي ت 1652. أمّا من الرحلات الحجازية النثرية فلابدّ من ذكر رحلة أحمد بن قاسم بن محمد ساسي البوني المسماة **الروضة الشهية في الرحلة الحجازية** والتي قام بها سنة 1762 ولم يعثر عليها، وفي نفس الفترة تقريباً قام ابن عمار بتدوين رحلته المسماة **نحلة اللبيب في أخبار الرحلة إلى الحبيب** والتي لم يبق منها إلاّ المقدمة.

لكن من أهم الرحلات الحجازية للجزائريين يُمكن أن نذكر رحلة تلميذ ابن عمار أبي راس، فقد عُرف بترحاله المتواصل وقيامه بفريضة الحج مرتين سنة 1204هـ/ 1789م وسنة 1226هـ/1811م، وقد دوّن أبو راس في كتابه: "**فتح الإله ومنته في**

---

1 أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ص 31.

التحدث بفضل ربي ونعمته" العديد من الأخبار المتعلقة بمشايخه وبالحياة العلمية والدينية في الشرق العربي ومغربه.

ومن أشهر الرحلات الحجازية للعلماء الجزائريين لابدّ من ذكر رحلة الحسين بن محمد السعيد الورتلاني ت 1193هـ المسماة بـ"**نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار**"، فهي تمتاز عن غيرها من الرحلات بما تحويه من معلومات تاريخية وملاحظات عن الأماكن التي مرّ بها فضلاً عمّا فيها من أخبار التصوّف والمتصوّفين بالمشرق العربي ومغربه خلال منتصف القرن الثاني عشر للهجرة، وقد حجّ الورتلاني ثلاث مرات الأولى سنة 1153هـ/1740م والثانية سنة 1166هـ/1752م والثالثة سنة 1179هـ/1765م.

ذلك شأن بقية العلماء المغاربة فإنهم لم يُخلّفوا آثاراً أدبية عن ذلك. فلم يتطور أدب الرحلة لدى علماء تونس في العصرين الحديث والمعاصر إلاّ بصفة محتشمة ومتأخرة.

وذكر صاحب الذيل في ترجمته لعدد من العلماء التونسيين قيامهم بأداء فريضة الحج؛ فمن بين علماء القرن XVII يُمكن أن نذكر المفتي الحنفي الشيخ الإمام أحمد الشريف ت 1645م وكذلك القاضي الحنفي محمد برناز ت 1673م وغيرهم كثير، بل إنّ حسين خوجة نفسه ت 1755 كان قد قام برحلتين للبقاع المقدسة، الأولىٰ سنة 1699م والثانية سنة 1713م.

وقد زار حسين خوجة خلال هذه الرحلة أماكن وبلدانا عديدة كدمشق والقدس مروراً بالإسكندرية والقاهرة.

ولئن لم يضع حسين خوجة تأليفاً خاصاً بذلك فإنه ترجم في ذيل كتابه "**بشائر الإيمان بفتوحات آل عثمان**" لعدد من علماء المشرق العربي الذين التقى بهم في رحلته من أمثال الشيخ محمد العابد صاحب كتاب "**حصر الشارد في أسانيد محمد عابد**" وغيره من العلماء.

كما يُمكن أن نذكر أداء كلّ من الشيخ محمد زيتونه ت 1726م لفريضة الحج مرتين الأولى سنة 1703م والثانية سنة 1712م، وقد ذكر تلميذه حسين خوجة قيام الشيخ محمد زيتونه في الإسكندرية بإحياء ليلة المعراج في حجته الأولى وازدحام الناس عليه، كما ذكر بعض الذين اتصل بهم في الأزهر وأخذ عنهم كالشيخ سليمان الشبرخيتي تلميذ الشيخ علي الأجهوري، ولقي بمكة الرحالة المحدث الشيخ عبد الله بن سالم البصري الشافعي ولقي بالمدينة الشيخ عمر الزلفي وغيره، وفي مدة استقراره بالمدينة قرأ التفسير وحاشيته على تفسير أبي السعود العمادي مفتي اسطنبول.

ومن بين علماء دولة حسين بن علي يُمكن أن نذكر كذلك أداء الشيخ يوسف بن محمد بن سليمان بن عبد الله برتقيز ت 1147هـ/1734م فريضة الحج سنة 1713م. وتواصلت الظاهرة مع علماء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ونذكر من أبرزهم الشيخ إبراهيم بن عبد القادر الرياحي ت 1850م الذي قام بحجة أولى سنة 1827م وحجّ

مرة ثانية سنة 1836م نيابة عن مصطفى باشاباي. ولقي الشيخ في رحلته عدداً من العلماء في مصر والمدينة المنورة منهم محدثها محمد عابد السندي المدرس بالحرم النبوي فأجازه ما حواه ثبته المعروف بحصر "الشارد في أسانيد محمد عابد".

قد ترك الشيخ إبراهيم الرياحي في ديوانه أشعاراً عن هذه الرحلة منها القصيدة التي في مطلعها:

إليك رسول الله جئت من البعد

أبثك في القلب من شدّة الوقد

وتُعدّ الرحلة الحجازية للشيخ محمد السنوسي ت 1900م من أبرز الرحلات الحجازية النثرية للعلماء التونسيين، فقد قام المؤلف سنة 1882م برحلة إلى البقاع المقدسة، فاتجه أولاً إلى إيطاليّ ومنها إلى اسطنبول فالحجاز ذهاباً ومنه إلى دمشق فبيروت وبور سعيد فمالطا في طريق العودة، وتعرّف بمكة على عدّة علماء هنود كرحمة الله وحبيب الرحمان الموسوي وغيرهم، واتصل بعدد آخر من العلماء في اسطنبول منهم شيخ الطريقة المدنية الشاذلية محمد ظافر.

ويُعتبر محمد بيرم الخامس ت 1889م وهو صديق الشيخ محمد السنوسي من العلماء التونسيين الذين سجلوا انطباعاتهم عن المشرق العربي وعن الحجاز في آثار نثرية، فخصص لهذه الأقطار فصولاً في كتابه "صفوة الاعتبار لمستودع الأمصار والأقطار".

إنّ المطلع على هذه الرحلات الحجازية يتبين مدى تعلق المغاربة واتصالهم بالمشرق العربي، ذلك أنّ التعاليم الدينية كانت تحث الحاج على الاتصال بالعلماء واغتنام تواجد العلماء المسلمين من مختلف الأنحاء في وقت ومكان واحد.

هذا ولم يكن للمشرق العربي جاذبية روحية ودينية فقط وإنما كانت له أيضاً جاذبية علمية، فالكثير من المغاربة كان يختار القيام برحلة علمية للمشرق العربي لفضل طلب العلم ولتفادي الأخطار والمشاق التي تنجر عن الحج.

إلى الأزهر:

تبعاً لذلك، انتشرت الرحلات العلمية من المغرب العربي إلى المشرق ولاسيما إلى مصر؛ فقليلاً ما نقف على ترجمة عالم شهير لم تكن له رحلة علمية إلى الديار المصرية.

لكن اتصال المغاربة بمصر والشام واسطنبول لم يكن بدافع العلم فقط وإنما كان أيضا بفضل التجارة، فضلا عن وجود جاليات من المغاربة بمصر والتي لعبت دوراً هاماً في هجرة العلماء إلى الأزهر، الذي كان مركز جذب علمي هام بالنسبة إلى المغاربة، لكن هذا الجذب لم يكن بداهة بنفس القوة ولا بنفس الأهمية على الأقطار المغاربية خلال العصور الحديثة.

فبالنسبة إلى وضعية المغرب الأقصى يُمكن القول متبعين في ذلك الأستاذين يونان لبيب رزق ومحمد مزين بأنّ الصلات الثقافية بين القرويين بفاس وبين الأزهر قد عرفت تطوراً ملحوظاً خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر في حين كان عدد العلماء

المهاجرين من المغرب الأقصى إلى مصر خلال القرن السادس عشر قليلاً لاعتبارات أمنية وسياسية.

فخلال القرن السابع عشر نجد ما لا يقلّ عن عشرين مغربياً تردّدوا على رواق المغاربة بالأزهر، ونخصّ بالذكر منهم شهاب الدين أحمد بن محمد المقري الذي ذهب إلى مصر سنة 1617م واستقر بها حتى وفاته سنة 1631م.

ومن علماء القرن الثامن عشر يُمكن أن نذكر أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن زكري والشيخ محمد السقاط الخلوتي المغربي وغيرهم.

أمّا من العلماء الجزائريين فيُمكن أن نذكر عيسى الثعالبي ويحيى الشاوي وعلي بن محمد المعروف بابن الترجمان ت 1185هـ/1771م وأبو العباس المغربي الجزائري وغيرهم ممن ترجم لهم الجبرتي وذكرهم في وفياته.

وقد نزل برواق المغاربة بالأزهر عدد هام من العلماء التونسيين ويُمكن أن نذكر على سبيل الذكر لا الحصر من علماء القرن السابع عشر الشيخ الإمام محمد بن شعبان وكان قد قرأ على الشيخ إبراهيم اللقاني جوهرته في التوحيد بالجامع الأزهر، ثم هاجر مرة ثانية إلى مصر واختلف إلى دروس مشايخ الأزهر حتى توفي بالقاهرة ودُفن بالقرافة سنة 1687م.

ومن علماء الفترة نفسها يُمكن أن نذكر الفقيه علي بن خليفة الحسيني الشريف المساكني وقد سافر لطلب العلم بالأزهر أواخر سنة 1690م ثم عاد للتدريس ببلده

مساكن، وقد ترك فهرسة في أسماء شيوخه ومروياته، ولاسيما مشايخ الأزهر كالشيخ محمد الخرشي وإبراهيم الشبرانيتي وأحمد اللقاني، وغيرهم من الطلبة التونسيين الذين عُرفوا بهجرتهم إلى مصر لطلب العلم في الأزهر وكذلك الشأن بالنسبة لاسطنبول، بحيث تتوفر للطالب والعالم الظروف الملائمة للدراسة من حيث توفر الاستقبال والأموال.

ولعلّ من أشهر العائلات الصفاقسية التي جمعت بين طلب العلم والتجارة بمصر هي عائلة النوري، ومنها الفقيه الصوفي علي بن سالم بن محمد النوري ت 1706م، فقد جاور بالأزهر حوالي خمس سنوات من سنة 1663م إلى سنة 1668م ثم رجع إلى بلده صفاقس للتدريس والإفادة. وقد ذكر في فهرسته عدداً من شيوخه المشارقة كالشيخ إبراهيم الشبراخيتي والشيخ شرف الدين يحيى أبي المواهب وغيرهم من العلماء الذين قرأ عليهم وأجازوه في علوم شتى.

ومن أشهر العلماء الذين جاوروا بالأزهر خلال القرن الثامن عشر الشيخ أبو الحسن بن عمر القلعي الذي سافر إلى القاهرة سنة 1741م وقد درّس بالأزهر وشغل به منصب شيخ رواق المغاربة. توفي سنة 1785م.

هذا ويبدو أنّ تحسن الأوضاع السياسية والاقتصادية بتونس بعد النصف الثاني من القرن الثامن عشر قد قلص من هجرة العلماء التونسيين إلى مصر والمشرق العربي عموماً، فقد أصبح الجيل الأول من العلماء الذين تتلمذوا بالمشرق قادرين على بثّ العلم في تونس، وتمكنت البيئة الزيتونية من استيعاب الطلبة المحليين بل أصبح الجامع الأعظم مركز

جذب بالنسبة إلى العلماء المغاربة فضلاً عن تدفق عدد من العلماء المشارقة ولا سيما من اسطنبول على البلاد التونسية. من هنا، يُمكن القول بأنّ المغرب العربي لم يكن يُمثل مناطق دفع فقط بل أصبحت المراكز العلمية به تستقطب عددا هاما من العلماء من مختلف الجهات، فعلاوة على التيار الثقافي الذي ربط بين المغرب والمشرق لابدّ أن نُقر بوجود تيار معاكس له.

4- تأثير الثقافية العثمانية:

لقد كان لدخول الجزائر أولاً ثم البلاد التونسية تحت السيطرة العثمانية وما انجر عن ذلك من انتكاس للحياة العلمية والثقافية بسبب هجرة العلماء وانشغالهم بالدفاع عن أنفسهم من خطر الحروب تأثير قوي على انبعاث تيار ثقافي عثماني جديد بالمغرب العربي.

فقد رافق انتصاب الأتراك العثمانيين بالجزائر وتونس اصطحاب عدد من العلماء والقضاة خاصة على المذهب الحنفي، وبالرغم من انشغالهم بمسائل بعيدة عن العلم أحياناً كالبحث عن الإثراء السريع أو نشر الطرق الصوفية فإنه لا يُمكن لنا التشكيك في تأثيرهم على الأهالي وعلى الحياة العلمية والدينية.

ومن بين العلماء والقضاة الأتراك الذين قدموا إلى تونس في بداية العهد العثماني يُمكن أن نذكر مثلاً أحمد وأبو الحسن علي أفندي ورمضان أفندي وغيرهم.

والمهم من زاوية المسألة التي نحن بصدد طرحها هو تمكن هذا الجيل الأول من العلماء الأتراك وبدعم من السلطة المركزية من التأثير على المدى الطويل بصفة إيجابية على الحياة الفكرية والعلمية بتونس والمغرب الأوسط.

ولا يفوتنا ذكر ما حصل بين الشيخ إبراهيم الرياحي أثناء سفارته لاسطنبول سنة 1838م وبعدها، من اتصال بعلمائها ولاسيما شيخ الإسلام عارف باي، فقد وقعت بينهما مراسلات بالشعر والنثر وتبادل للإجازة.

وعرفت ولاية الجزائر بدورها توافد العلماء العثمانيين منذ مطلع القرن السادس عشر لا سيما من القضاة الذين يتم تعيينهم بصفة رسمية من قِبل السلطان العثماني وكذلك النساخين والوراقين.

وبعد أن أصبح المفتي والقضاة الحنفيون يُعينون من بين أبناء العثمانيية المولودين بالجزائر في مطلع القرن الثاني عشر للهجرة تواصلت الاتصالات العلمية والثقافية بين الولاية والمركز معربة عن ذلك الانتماء المشترك للأمة الإسلامية وحضارتها.

وانتشر الخط العثماني والمؤلفات العثمانية في التفاسير والقراءات والفقه ومختلف العلوم في المراكز العلمية المختلفة بالجزائر، فأثرت هذه المؤلفات رصيد المكتبات الجزائرية في الجزائر العاصمة وفي قسنطينة ولا سيما في مكتبة حمودة الفكون وغيرها من المكتبات الخاصة. وظلت الحاجة إلى علماء اسطنبول وفقهائها بالجزائر قائمة للتأكيد على الصلة السياسية بين الولاية والمركز.

ومن الأمثلة على ذلك التواصل يُمكن أن نذكر زيارة القاضي المولى علي في أوائل القرن الحادي عشر للهجرة إلى الجزائر واتصاله بعالمها عبد الكريم الفكون، كما يُمكن أن نذكر وفود الشيخ مصطفى خوجة إلى الجزائر سنة 1188هـ/1774م وتوليه بها عدّة وظائف دينية وعلمية.

عرف المغرب الأقصى بالرغم من بقائه خارج الامبراطورية العثمانية صلات سياسية وثقافية مع اسطنبول، فبعد مواجهته للأطماع العثمانية بكلّ عنف أقدم أحمد المنصور الذهبي على إرسال سفيرين عنه للباب العالي هما: العالم أبو عبد الله محمد بن علي الفشتالي ت 1021هـ/1612م والعالم السفير محمد الجزولي التمجروتي ت 1103هـ/1691م، وقد ترك كتاباً عن سفارته سماه "النفحة المسكية في السفارة التركية"، وقد ذكر فيها ما قام به من شراء كتب مفيدة من اسطنبول والتقائه بفقهائها واستجازتهم وذلك سنة 997هـ/1588م.

ولاشكّ أنّ المغرب الأقصى قد كان على اتصال بالثقافة العثمانية من خلال ممثليها بالجزائر بحيث كانت الصلة مع مركز الخلافة العثمانية غير مباشرة وليست منعدمة، فقد كان دايات الجزائر على اتصال بسلاطين المغرب الأقصى بالرغم من التقلبات العديدة التي عرفتها العلاقة بين النظامين، بل إنّ الدايات عملوا على بعث وفود من العلماء والفقهاء لحلّ بعض المشاكل والخلافات الحدودية خاصة بين البلدين، ومن ذلك قيام عثمان باشا بمراسلة المولى محمد بن الشريف العلوي سنة 1064هـ بعد هجومه على

تلمسان، وقد حمل الرسالة فقيهان هما عبد الله النفزي والحاج محمد بن علي الحضري الزغنائي. لذلك يمكن القول بأنّ التواصل الثقافي بين المغرب العربي ومشرقه كان مدعوماً بتواصل بين الأقطار المغاربية نفسها.

1/4- التواصل الثقافي بين دول المغرب العربي:

إنّ علاقات الجوار بالرغم من الاختلافات السياسية والمذهبية قد فسحت المجال إلى جانب عوامل أخرى أمام تعزيز التبادل الثقافي وإرساء ثقافة مغاربية قوامها تبادل الزيارات بين العلماء والمتصوفة والإجازات فظهرت رموز وأعلام تُجسد وحدة الحقل الثقافي المغاربي.

من بين هذه الرموز والأعلام والذين جاءوا بعد العلامة عبد الرحمن بن خلدون والذي يعتبر أحسن مثال عن التواصل الثقافي بين أقطار المغرب العربي يمكن لنا أن نذكر أمثلة عديدة أخرى من العلماء الذين لم يصلوا إلى مرتبة ابن خلدون العلمية وشهرته ولكنهم تحوّلوا إلى رموز للوحدة الثقافية.

فهذا الفقيه المالكي أحمد بن يحيى الونشريسي صاحب كتاب "المعيار المعرب" ينتقل من تلمسان ليستقر بفاس فتتحوّل أعماله بالقرويين مرجعاً لعلماء المغرب العربي قاطبة، وهذا الفقيه أبو عبد الله محمد بن علي الخروبي وأصله من طرابلس ت 1553م ينتقل بين عواصم المغرب العربي وتُنظم له المناظرات والمجالس العلمية في مختلف مراكز الثقافة والتعليم.

هذا الشيخ محمد بن أبي إلفضل خروف الأنصاري التونسي ت 1558م ينشر بين علماء الجزائر وعلماء فاس العلوم العقلية ويتخصص في تدريسها بالقرويين.

إنّ شهرة هؤلاء العلماء ومساهمتهم في بناء ثقافة مغاربية وفي تأسيس تقاليد تقوم على الاتصال الدائم بين بلدان المغرب العربي ليبرز من خلال التيار الثقافي الذي يربط بين قطبي الثقافة والعلم في العصور الحديثة بين الزيتونة بتونس والقرويين بفاس، وتتوسط هذه الطريق الثقافية إن صحّ التعبير محطات ومراكز علمية جزائرية بتلمسان ووهران والجزائر وقسنطينة.

فقد ورد على الجزائر خلال العصور الحديثة أعداد هامة من العلماء المغاربة من الصعب حصرهم.

فسواء كانت رحلة التونسيين إلى المغرب الأقصى براً أم بحراً فإنّ العديد منهم يفضل التوقف ببعض المدن الجزائرية للراحة أو لزيارة الأولياء الصالحين والاتصال بالعلماء.

أمّا البعض الآخر من العلماء التونسيين وخاصة منهم من كان على المذهب الحنفي فلم تكن الجزائر بالنسبة إليهم نقطة عبور فقط وإنما تحوّلت موطناً لطلب العلم والوظائف. فبحكم التشابه النسبي في النظم السياسية بين الولايتين العثمانيتين ورد على الجزائر في العهد العثماني بعض العلماء والقضاة الحنفيين من تونس، نذكر منهم على سبيل المثال الشيخ أحمد بن مصطفى برناز صاحب "الشهب المحرقة" فقد توجه إلى الجزائر وأخذ عن

عدّة مشايخ بها منهم الشيخ رمضان بن مصطفى العنابي والشيخ بن خليل والشيخ محمد بن سعيد قدورة.

ويبدو من خلال المصادر المتوفرة أنّ انتقال التونسيين إلى الجزائر قد تقلص خلال القرن الثامن عشر مقارنة بالقرون السابقة له وذلك لعدّة اعتبارات من أهمها استقرار الأوضاع السياسية والاجتماعية بتونس وانتعاش الحياة الثقافية والعلمية على يد أبناء حسين بن علي، في حين ساءت علاقة السلطة العثمانية في الجزائر بعلمائها، وكان ذلك سبباً من الأسباب القوية التي دفعت بعلماء الجزائر إلى الهجرة لطلب العلم بالمغرب الأقصى وبالبلاد التونسية على حدّ سواء.

وعرف المغرب الأقصى والقرويين بفاس خاصة ورود عدد هام من العلماء وفي نسق الهجرة؛ إذ يبدو حسب بعض الدراسات أنّ مجيء العثمانيين واستقرارهم بالجزائر قد دفع بنسبة هامة من علماء تلمسان خاصة إلى الاحتماء بالمغرب، ومن بين هؤلاء يمكن أن نذكر هجرة العالم أحمد الونشريسي واستقراره بفاس إلى أن قُتل بها سنة 1548 م ضحية الصراعات السياسية بين الوطاسيين والسعديين.

كما تميزت بداية الدولة السعدية ولا سيما عهد مولاي أحمد المنصور الذهبي بتوافد عدد هام من العلماء الجزائريين على المغرب الأقصى.

فمن بين علماء القرن العاشر للهجرة يمكن أن نذكر الفقيه أحمد شقرون بن أبي جمعة الوهراني ثم علي بن عيسى الراشدي الذي أتم دراسته بالقرويين، وكذلك الشأن

بالنسبة للفقيه أحمد بن محمد بن جيدة الوهراني وغيرهم كثير من الذين تردّدوا على القرويين بفاس خاصة.

وكان جامع الزيتونة بالبلاد التونسية قد جذب إليه أعداداً هامة من العلماء الجزائريين وبالتالي قلص من تردّدهم على المغرب الأقصى.

وعجت كتب التراجم بأسماء العلماء والطلبة الجزائريين الذين درسوا بالزيتونة أو درّسوا بها، ويمكن التمييز في هذا المجال بين صنفين من العلماء الجزائريين؛ صنف أول خيّر البقاء في تونس والاندماج في فئة علمائها، وصنف ثان هاجر بصفة مؤقتة لطلب العلم ثم رجع لبث ما تحصل عليه بالجزائر، وتواصل توافد العلماء الجزائريين على البلاد التونسية لطلب العلم بنفس النسق تقريباً خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر؛ فقد هاجر إليها الشيخ القاضي أحمد العوادي، وينحدر من قبيلة العواودة بجهة قسنطينة، وقد تولى التدريس بالجامع الأعظم ثم ولي خطة القضاء بماطر ت 1828م، ومن بين المشايخ كذلك لابدّ أن نذكر الشيخ الولي محمد الباشير وأصله من جبال زواوة، وكان تولى التدريس بتونس وقرأ عليه المؤرخ أحمد بن أبي الضياف تفسير بن الفرس، وتوفي الشيخ محمد الباشير بتونس سنة 1827م وبُنيت على قبره زاوية.

هذه إذاً بعض الأمثلة التي تُبين مدى التواصل الثقافي بين تونس والجزائر، فبالرغم من تقلب العلاقات السياسية بين الولايتين وما شابها من حروب بين الأنظمة فإنّ اتصال العلماء والسكان بصفة عامة ببعضهم لم ينقطع. ولئن كان من العسير هنا تعداد كافة

العلماء الجزائريين الذين كانت لهم صلة من قريب أو بعيد بالبلاد التونسية فإنه لابدّ من الإشارة إلى أنّ أحد أبرز العلماء الجزائريين الشيخ سعيد بن إبراهيم قدورة والذي اشتغل بالإفتاء المالكي في الجامع الكبير بالجزائر، وهو من أصل تونسي وبالتحديد من جزيرة جربة، فقد انتقلت عائلته إلى الجزائر للاحتراف بالتجارة كغيرها من العائلات الجربية، وتجدر الإشارة هنا إلى العلاقات العلمية والثقافية بين علماء المذهب الإباضي بكلّ من جزيرة جربة وإباضية الجزائر.

ونرى مدى مساهمة العوامل الدينية ولاسيما المذهبية كالمذهبين الحنفي والإباضي في تعزيز التواصل الثقافي بين الولايتين، والتبادل التجاري بينهما، لاسيما وجود قافلة تجارية تربط بين قسنطينة والبلاد التونسية»[1]، ولاشكّ أنّ انتقال المواد والبضائع كان يُواكبه انتقال للكتب والمخطوطات والأفكار، بعد وقوع الجزائر تحت السيطرة الاستعمارية تواصل مجيء العلماء الجزائريين إلى تونس بل ارتفع نسق تردّد الطلبة على جامع الزيتونة في حين تقلص عدد التونسيين المهاجرين إلى الجزائر منذ القرن الثامن عشر كما أسلفنا لتحسن الأوضاع الداخلية للبلاد التونسية.

وتحسن الأوضاع ولاسيما وضعية التعليم والعلماء بتونس في العهد الحسيني لم يمنع من ربط البلاد التونسية لصلات ثقافية هامة مع المغرب الأقصى علاوة على العلاقات السياسية والتجارية والتي لم تكن في الحقيقة تُضاهي أهمية العلاقات التجارية للبلاد التونسية في المشرق العربي ولاسيما مع مصر.

---

(1) التعصب و الصراع الديني و العرقي و اللغوي لماذا؟ وكيف؟ ص82.

لقد عرفت الصلات الفكرية بين المغرب الأقصى وتونس خلال العصور الحديثة تطوراً ملحوظاً أكد أهمية الروابط الثقافية التقليدية واستمراريتها عبر العصور، فمنذ مجيء الإسبان إلى تونس هاجر الكثير من العلماء التونسيين إلى المغرب الأقصى فراراً من اضطراب الأوضاع وخوفاً من التنصير، فقد تحوّلت فاس والمغرب الأقصى عموماً ملاذاً للمضطهدين وقبلة لطلب العلم ولاسيما بعد نجاح السعديين في توطيد نفوذهم وبقائهم خارج الإمبراطورية العثمانية ومحاولاتهم توحيد المغرب الإسلامي والدفاع عنه بشتى الطرق والوسائل لاسيما من خلال احتضان العلماء.

و نذكر من ذلك أنّ الشيخ محمد بن أبي الفضل خروف الأنصاري التونسي ت 966هـ/1558م لمّا وقع في الأسر بعد هجوم الإسبان على تونس افتداه الأمير الوطاسي فنزل بفاس وساهم مساهمة فعالة في ترسيخ بعض العلوم بها مثل علم الأصول والمنطق والبيان[1]، وانتفع بعلمه عدّة علماء من المغرب الأقصى كالمنجور والقصار وغيرهم.

ويُمكن أن نذكر كذلك جمعاً من علماء القرن السابع عشر من التونسيين الذين قصدوا المغرب الأقصى لطلب العلم، فقد توجه مثلا العديد من العلماء إلى القرويين بفاس أيام السلطان مولاي أحمد الذهبي فأُعجب بعلمهم وسعة اطلاعهم.

ويبدو من خلال كتب التراجم وعلى ضوء الدراسات الحديثة أنّ مساهمة القرويين في اللقاح العلمي بين المغرب الأقصى وتونس كانت هامة، بالرغم من أنّ انتقال

---

[1] حلقات من تاريخ المغرب الإسلامي، ص 118.

التونسيين إلى المغرب الأقصى لم يتطوّر نظراً لتوافد العلماء المستمر على تونس من القرويين خاصة، بحيث توفر للتونسيين الحصول على المعرفة وشتى العلوم دون الهجرة إلى فاس.

وفي هذا الجانب ترجم حسين خوجة لعدد من العلماء من المغرب الأقصى والذين ساهموا في تطوير شتى العلوم بتونس منذ القرن السابع عشر، ومن بينهم نذكر «الشيخ سيدي عبد الله بن محمد وأصله من بلاد السوس وقد قرأ بمراكش وفاس ثم ارتحل إلى تونس واستقر بالقيروان، ومنهم كذلك الشيخ أحمد التدغي والذي جاء إلى تونس حوالي سنة 1650م ودرس بجامع الزيتونة»[1]، ومنهم الأديب عبد الرحمان الجامعي الذي ازداد بفاس سنة 1677م ثم قدِم إلى تونس ونشر بها العلوم الأدبية وتوفي بها.

كما حلّ بتونس عدد من المشايخ والأولياء الصالحين من المغرب الأقصى مثل الشيخ الولي محمد المصطاري الذي ازداد بمكناس وقرأ بفاس ثم قدِم إلى تونس واستقر ببنزرت، ومن أشهر الأولياء الصالحين يُمكن أن نذكر كذلك الشيخ سيدي علي عزوز.

ومن علماء المغرب الأقصى الذين توافدوا على تونس خلال القرن الثامن عشر يُمكن أن نذكر على سبيل المثال، الشيخ عبد الله السويسي ت 1169م والشيخ الهاروشي ت 1175م صاحب كتاب "الصلوات المسمى نور الأسرار في الصلاة على النبي المختار"، وكذلك الشيخ الفقيه حسونة القصري وأصله من الرباط، وقد قدِم إلى تونس بقصد التجارة ولكنه كان عالماً وفقيهاً ت 1784.

---

[1] طلوع سعد السعود، ج1، ص 79.

ومن أبرز أعلام المغرب الأقصى الذين وفدوا على تونس نذكر الفقيه والأديب عبد القادر السلاوي الفاسي النشأة، قدِم إلى تونس في عهد علي باشا فكلفه بتلخيص الحاشية الكبيرة على تفسير الإمام أبي السعود للشيخ محمد زيتونة، وقد تقلب في عدّة مناصب دينية وعلمية منها قضاء بنزرت ت 1176م، وساهم هؤلاء العلماء والمفكرون ورجال الدين بقسط كبير في التأثير في الأحداث والأوضاع التي عرفها المغاربة في مختلف الحقب وكثيرا ما كان الفضل لهم في استتباب الأمور وإقرار السلم كما كانت لهم أياد في استثارة الشعوب وإحداث الثورات والصراعات.

5- تأثير الأوضاع العامة في تشكيل الصورة

1/5- تأثير الأوضاع السياسية:

عند التحدّث في مجال الأوضاع السياسية التي كانت سائدة عهدئذ في المغرب العربي، تظهر رؤية أهل المغرب العربي السياسية قبل الاحتلال، ويساهم في تثبيت هذه السياسة عاملان أساسيان.

1- تحديد الفضاءات الثقافية والسياسية التي ينتمي إليها المغاربة.

2- وجود فضاء آخر وسط الفضاءات الثقافية الأخرى وهو وجود الأوروبيين المتكاثر باستمرار.

وهنا تظهر بوضوح كلّ المشاكل حول طبيعة الدول المغربية، وهل كانت توجد فيها أمم بأتمّ المعنى قبل الاحتلال، وهي مشاكل يصعب الإجابة عنها بصفة قطعية، وهذا لوجود جدل كبير بين المغاربة وتباين سياساتهم وولائهم.

إنّ المغرب العربي على مستوى الدول الثلاثة: الجزائر، المغرب الأقصى، تونس يتميز بعلاقات غير منتظمة بينَ حكوماته؛ فقد استخدم سلطان المغرب الأقصى مولاي سليمان أتباع الطريقة الدرقاوية الصوفية لدعم الثورة على الأتراك في ناحية وهران. وتمكنت حكومة تونس الخاضعة للجزائر منذ سنة 1756 من التخلص من تلك الوصاية التي كانت تقيد استقلالها؛ «فقد توقف حمودة باشا عن دفع الغرامة السنوية التي فرضها داي الجزائر على بلاده، وأمر ببناء البروج، وحصّن الحدود، وشنّ حملة عسكرية تكللت بالنصر في سنة 1807، ولم يعد السلم والسلام إلى أقاليمها إلا في سنة 1821 بفضل وساطة الباب العالي بتونس»[1]، ويُمكن تتبع سيرة كلّ من الدول الثلاثة: المغرب، الجزائر، تونس من خلال تسيير أنظمة الحكم وأوضاعها العامة.

2/5- تأثير الأوضاع الاجتماعية:

تميزت الأوضاع الاجتماعية في المغرب العربي الكبير الجزائر، المغرب، تونس، ليبيا، بعد مجيء الإسلام بالوحدة فيما بين شعوبها، وساد فيها العدل والإخاء والمساواة الكاملة في الحقوق والواجبات لفترات طويلة، عكس ما كان سائداً في صفوف المجتمعات الغربية في أوروبا.

وإذا حاولنا تفسير الأوضاع والظواهر الاجتماعية المتعلقة بمجتمع المغاربة يجب التطرّق ولو بصفة موجزة لتعريف الظاهرة الاجتماعية، وقد أشار بعض السوسيولوجيين إلى أنها كلّ ضرب من السلوك، ثابتاً كان أم غير ثابت يُمكن أن يُباشر نوعاً من القهر

(1) المغرب العربي قبل احتلال الجزائر، ص 106.

الخارجي على الأفراد، أو هي كلّ سلوك يعمّ في المجتمع بأسره، وكان ذا وجود خاص مستقلّ عن الصور التي يتشكل بها في الحالات الفردية.

هذا التعريف يجعلنا نتأمّل بعمق الأوضاع الاجتماعية لشعوب المغرب العربي وكيفية معيشتهم من الناحية العلمية التربوية، الأخلاقية وغيرها، لكنه لا يمكن أن تكون الظاهرة اجتماعية إلاّ بشرط أن تكون مشتركة بين جميع أفراد المجتمع، أو على الأقلّ الغالبية العظمى منهم، أي إلاّ إذا كانت عامة، غير أن الظاهرة لا تكون عامة في هذه الحال إلاّ لأنها اجتماعية أي أنها تقهر الأفراد إلى حدّ كبير أو قليل، بعكس ما قد يُفهم من أنها اجتماعية لأنها عامة، فالظاهرة الاجتماعية[1] حالة من حالات الجماعة التي تتحقق لدى الأفراد، لهذا السبب، وتفرض نفسها عليهم فرضاً، لوجدها في كلّ جزء من أجزاء المجتمع وتبدو بداهة هذا الأمر بصفة خاصة فيما يتعلق بالعقائد والعادات تامة التكوين التي نرثها عن الأجيال السابقة.

ومن هنا نرى أنّ الأوضاع الاجتماعية في المغرب العربي ما بين القرنين 18 و19 كانت من الناحية الفكرية تُعد الأفراد لمبادئ اللغة العربية وقواعدها إيماناً بأهمية التعليم وخطر الجهل، وسعياً لأداء الفروض والواجبات الدينية خاصة الصلاة التي يتطلب أداؤها حفظ جزء من القرآن، وعرف المجتمع المغاربي بكثرة حفظة القرآن، وهذا لتغلغل مبادئ الدّين الإسلامي في نفوس أغلبيتهم.

(1) الجزائر المفكرة والتاريخية أبعاد ومعالم، ص 114.

3/5- تأثير الناحية الصحية:

يعتمد السكان على طبّ الأعشاب في المداواة سواءً للأمراض الباطنية أو الجروح، ولهم تجارب مهمة، وناجحة وإيجابية في كثير من الأحيان، إلا إذا حدثت الأوبئة المعدية سريعة الانتشار كالتيفوس، والكوليرا وغيرهما، فلا يملكون علاجاً ناجعاً ووقاية صحية مفيدة، ويموتون بالآلاف في مثل هذه الحالات.

"وبظهور الأوبئة الفتاكة في إفريقيا الشمالية في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر تعرّض السكان للمرض للطاعون المستورد عن طريق الحجيج القادمين من محطة الإسكندرية"[1]، والذي يتسرّب إلى الموانئ ومنها إلى البوادي ويُعيث فيها فساداً.

وقد ظهر الطاعون للمرة الأولى في سنة 1784 وأصاب على التوالي تونس والجزائر ولكنه لم يتسرّب إلى المغرب الأقصى، ولم تنحصر آثاره في المناطق الساحلية فقط، بل شملت جميع أنحاء البلدين، واجتاح بحدّة المنطقة الشرقية من الجزائر في سنة 1785، والمنطقة الوسطى في سنة 1788، ومعسكر في سنة 1789، وأُصيبت تلمسان بدورها في سنتي 1790 و1791، ومن بين النتائج أن تضاءلت كمية الصوف المصدّرة من عنابة إلى الشركة الإفريقية في سنة 1787؛ لأنّ عدد صانعي البرانس قد أصبح غير كاف لتصنيع محاصيل الصوف، كما انخفض صنع الأحزمة الحريرية وتصديرها بسبب قضاء الطاعون الجارف على صانعي الحرير في مدينة الجزائر.

---

(1) المغرب العربي قبل احتلال الجزائر ص 28.

أمّا المرحلة الثانية من انتشار الطاعون التي تكاد تكون غير منفصلة عن المرحلة الأولى، فقد بدأت في سنة 1793، ولَئن كان الوباء أقلّ وطأة من المرّة الأولى إلاّ أنّ آثاره الفتاكة كانت مماثلة، ذلك أنه اجتاح مراراً وتكراراً نفس الأماكن، وما إن تتقلص أضراره حتى يظهر من جديد بعد ذلك بقليل، وقد أُصيبت بهذه الآفة في هذه المرّة المغرب الأقصى الذي لم يتعرّض للوباء منذ سنة 1775 حيث تسرّب في سنة 1799 عن طريق البرّ، وقد مهدت له المجاعة وسارعت في انتشار تنقلات الجيش المغربي، «فاجتاح الطاعون فاس ومكناس والرباط والحوز، وانتشر في جميع أرجاء البلاد من طنجة شمالاً إلى منطقة السوس جنوباً، أمّا الجزائر المتعرضة له سنة 1793، فقد تخلصت منه في سنة 1799»[1]، ولكنه عاد لينتشر مرّة أخرى سنة 1817.

ومن ضمن الأدوية العشبية الشائعة، المرهم الذي يصنعونه من عصارة شجر الصنوبر، القطران، البصل، وزيت الزيتون والزعتر والعسل والكمون وأوراق نبات تاسلغة الشديدة المرارة، وكثيراً ما يلجأون في حالات الأمراض النفسية والحمى إلى كتابة التمائم، والشقافات، والرقاوى، لدى بعض الشيوخ الذين يتعاطون هذه المهنة ويُبالغ البعض فيها فيُخلط بين العلاج والشعوذة كوسيلة لابتزاز أموال الناس.

وكانت الحالة الصحية قبل الاحتلال الفرنسي، حسنة بصفة عامة بسبب وفرة المواد الغذائية خاصة الحبوب ووفرة المياه واستهلاك زيت الزيتون، يُضاف إلى هذا عدم اكتظاظ السكان وملاءمة المساكن والاهتمام بالنظافة التي تفرضها العقيدة الدّينية نفسها

[1] المغرب العربي قبل احتلال الجزائر، ص28.

على السكان خاصة الوضوء الأكبر من الجنابة، والأصغر خمس مرات في اليوم لأداء الصلاة، وضرورة طهارة الملبس والمصلى لذلك، والجميع كانوا يؤدّون هذه الفريضة الدينية رجالاً ونساءً، كباراً وصغاراً، ابتداءً من سنّ السابعة والثامنة[1].

وبعد مجيء الاحتلال الفرنسي للجزائر، قام العسكريون بقهر الأهالي وغصب أموالهم وممتلكاتهم، وأتعابهم بالحروب والملاحقات وكذا أنواع الضرائب المفروضة عليهم، كما تمّ تشريد الكثير من السكان. وهذه الأسباب أدّت إلى نقص في المواد الغذائية، وانحطاط المستوى المعيشي، والتدهور الصحي للأفراد، وتعرّضوا للمجاعات الفتاكة بين عام 1867 و1868، فمات الكثير والكثير، حوالي نصف المليون من السكان.

4/5- تأثير الأوضاع الاقتصادية:

عرف المجتمع المغاربي أنماطاً اقتصادية مختلفة، من الزراعة المتعدّدة الأنواع والأكثر كثافة إلى الاقتصاد الرعوي الذي لا يترك سوى بعض الآثار الزائلة في المشهد الريفي، فمنطقة قسنطينة مثلا كانت تتعايش فيها يومئذ أصناف شتى من البشر، منها أهل الجبال القبائليين وسكان الأوراس، وهم غرّاسون، وبستانيون يتولون استغلال الأرض استغلالاً مكثفاً، فيُنتجون الزيت والفواكه والخضر على مختلف أنواعها.

فقد كانت كلّ عائلة تحرث قطع الأرض التي هي قادرة على زرعها، رغم عدم وجود أيّ رسم ملكية يُثبت حقوق كلّ فرد، فإنّ امتلاك العائلة لقطع الأرض المزروعة بموجب العمل الذي أُضفيت عليه الشرعية تواصل وأصبح وراثياً.

(1) مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، ص341.

ونجد هذه الأصناف المتنوّعة من الاقتصاد الرّيفي مع بعض الاختلافات في المغرب العربي بأسره، ولاشكّ «أنّ منتجات الغرّاسين في الأطلس الأعلى وأهل الواحات، ولا ريب أيضاً أنّ مظهر السكن يتغير، إلاّ أنّ إحياء الأراضي، ونوعية النّظام الزراعي، وتقسيم المشاهد الطبيعية وترحال أصحاب الإبل القوافل الصحراوية موجود في المغرب الأقصى والجزائر»[1].

وبالتالي فإنّ ما يسترعي الانتباه هو ركود الطرق الزراعية والآلات الفلاحية حتى في المناطق التي يتمّ فيها استغلال الأرض استغلالاً مكثفاً، ويتسم فيها عمل الفلاح بدقة.

وخلاصة القول حول هذا المجال، أنه كان هناك اقتصاد مصغر بين الأهالي، وكان العامل البسيط هو أساس الزراعة يعمل عند أصحاب الأراضي وأصحاب الملكية الصغيرة وأرباب العمل، ونهاية الأمر يُمكن القول بأنّ توزيع الأراضي واستغلالها استغلالاً واضحاً بدا جلياً في أو ساط المجتمع في المغرب العربي في فترة ما قبل الاستعمار، وهذا على أساس أنّ تلبية الحاجات الأساسية لا تُثير التوترات والفوارق الاقتصادية بين أهالي المغرب العربي بأسره.

وفي ميدان الصناعة «كان للمغرب الإسلامي دور بارز في تعريف الأوروبيين بعدد هائل من الصناعات وفنونها كالورق والنسيج والخزف والزجاج والسكر والبارود والزخرفة وغيرها»[2].

[1] المغرب العربي قبل احتلال الجزائر، ص55.

[2] مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، ص36.

والوضع الاقتصادي بالمغرب العربي امتاز بنوع من الصناعات البسيطة مثل: الخزف والنسيج رغم التأثيرات السلبية التي واجهها، ومنها: قلة الأسطول التجاري، تكوين اقتصاد استغلالي ممّا أدّى إلى أزمة اجتماعية.

تلك هي عناصر الأزمة التي أصابت الاقتصاد المغاربي في الصميم، بعدما كان قادراً قبل ذلك على تلبية حاجات السكان المتواضعة، «وبعد ذلك بمدّة قليلة ستُواجه الأنشطة الحضرية في الأقطار المغاربية الثلاثة صعوبات إضافية ناجمة عن تغيير المسالك التجارية المشرقية ومزاحمة الصناعات الأوروبية، وسيؤول هذا الكفاح غير المتكافئ إلى خضوع المغرب العربي لأوروبا المتقدّمة»[1].

5/5- تأثير الأوضاع العسكرية:

لقد كانت القوات العسكرية المتواجدة ببلدان المغرب العربي قوة لا يُستهان بها في ازدهار حضارة المغاربة حيث كان نشاطها منحصراً في الدّفاع عن أقاليم البلاد، وكذا حفظ الأمن بها من النزاعات والتيارات والتصدّي للهجومات الأجنبية وخاصة من الأروبيين، وخير مثال نُبرزه في هذا المجال الأسطول البحري العظيم الذي كان صاحب سيادة في البحر المتوسط، حيث كان يفرض الضرائب والرسومات على السفن العابرة للبحر، لأن البحر المتوسط كان طريقاً عالمياً للتجارة وحلقة وصل بين أجزاء العالم خاصة بين شمال إفريقيا وجنوب أوربا.

وفي مطلع العصر الحديث برزت على ضفافه البحر المتوسط عدّة قوى سياسية

(1) المغرب العربي قبل احتلال الجزائر، ص104.

تركزت بصورة خاصة في جنوب غرب أوروبا، وشمال غرب إفريقيا، وشرق البحر المتوسط، واحتدّ الصراع بينها واشتدّ خاصة بين الأطراف التالية:

1- الإسبان والبرتغاليين ضدّ مسلمي الأندلس المطرودين، وضدّ بلدان المغرب العربي الإسلامي التي تأويهم وتُقدّم لهم العون والتأييد.

2- الدّول المغربية ضدّ الممالك الأوروبية وقراصنتها في غرب أوروبا وجنوبها.

3- فرنسا وإسبانيا المسيحيتان الكاثوليكيتان ضدّ بعضهما البعض خاصة في عهد فرانسوا الأول، وشارليكان.

4- الأتراك العثمانيين ضدّ الإمارات المسيحية وأساطيل قراصنتها في شرق البحر المتوسط، وجنوب شرق أو روبا.

وكان إقليم شمال إفريقيا الغربي الذي يتمتع بالوحدة المتكاملة، الجغرافية، العرقية والتاريخية، قد قاوم الغزوات الأوروبية الاستعمارية منذ عهد الرومان، وكوّن سكانه دولاً كبيرة راقية وقوية، في حِقب كثيرة من التاريخ كان لها دور مهم في أحداث العالم كما هو الحال في عهد ماسينيسا وصدر الفتح الإسلامي، وفي عهود الفاطميين، المرابطين، الموحدين[1].

ولكن رغم تواجد الفاطميين، المرابطين، والموحدين، وخاصة الموحدين لم يمنع قيام الفتن و الثورات، حيث حاولت بعض الدّول فرض وجودها بالمغرب العربي، ففي تونس تكوّنت الدّولة الحفصية، وفي الجزائر كانت هناك دولة عبد الواد الزيانية، والدّولة

---

[1] علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوروبا من 1500 إلى 1830، ص 09.

المرينية بالمغرب الأقصى، وتكوّن هناك صراع دائم أدّى إلى ضعف هذه الدّول، ممّا أتاح الفرصة للضغط الأوروبي المسيحي الذي أصبح يُهدّد مصالحهم في حوض البحر المتوسط، وحتى على السواحل المغاربية، وهذا ما ساعد الإسبان والبرتغاليين على فرض وجودهم بالمنطقة وقيامهم بعدّة غارات على مدن المغرب الساحلية من طنجة غرباً إلى طرابلس شرقاً، وخلال هذه النزاعات اختلّ التوازن بين قوى جنوب غرب أوروبا وشمال غرب إفريقيا، وأنهكت شعوب الجزائر وبلدان المغرب الأخرى بالحروب الدّاخلية والخارجية، وتكالبت ضدّها دول وممالك أوروبا، وشنت الغارات والحروب عليها بصفة فردية وجماعية، مدعمة بالبابوات الذين كانوا يُباركون هذه الغارات، ويُدعمونها بالمال، والسلاح والدّعاية.

وهذه الغارات والهجومات «تميزت بالتوحش والشراسة في تخريب العمران وإتلاف الأملاك وسلب الأموال، وقتل البشر واسترقاقهم وإذلالهم[1]، لأنها تدخل في إطار الحروب الصليبية» التي حاول الأوروبيون إحياءها بعد أن فشلت في المشرق الإسلامي، وقد ساعدهم على ذلك نجاح الإسبان في طرد المسلمين من الأندلس، ونجاح الأتراك في غزو شرق أوروبا وبسط نفوذهم عليه، «كما تدخل هذه الغارات في إطار القرصنة البحرية التي باركتها الحكومات الأوروبية»[2] كمصدر للكسب والغنيمة، وكوسيلة لتحطيم قوّة المسلمين وإذلالهم، وتمهيد الطريق لاستعمار بلدانهم بعد ذلك، وتفنن القراصنة الأروبيون في

[1] مجلة الدراسات التاريخية، ص28.

[2] علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوروبا من 1500 إلى 1830، ص10.

ممارستها بمرور الزمن، وضمن أسباب ودوافع هذه الغارات والاعتداءات الأوروبية على الجزائر وبلدان المغرب العربي الإسلامية نجد:

أولاً: ظهور الدّولة الوطنية الحديثة بأوروبا ورغبتها في التوسع الاستعماري خارج القارة.

ثانياً: الصراع الدّائم بين التيار المسيحي والإسلامي والحروب الصليبية ضدّ المسلمين وحبّ الانتقام، والتوسع في بلدان المغرب العربي.

ثالثاً: رغبة الإسبان والبرتغاليين في وضع حدّ لنشاط مسلمي الأندلس المطرودين ومنع بلدان المغرب العربي من تقديم العون لهم.

رابعاً: الاحتلال والاستيلاء على مواقع استراتيجية بصفة دائمة، واتخاذها منطلقاً للتوسع الاستعماري.

خامساً: التبشير الصليبي والرغبة في التمسيح ونشر المسيحية.

وانقسام بلدان المغرب على نفسها وتطاحنها فيما بينها، كان له أثر فعال ومباشر في تحفيز القوى الأوروبية المسيحية على ممارسة العدوان بصورة شرسة ومتوحشة ضد المدن والموانئ الساحلية المغاربية، وبنى الإسبان والبرتغاليون سياستهم على ممارسة الاعتداء، حتى قبل أن ينتهوا من طرد بقايا المسلمين من الأندلس، فاحتلّ القشطاليون تيطوان واحتلّ البرتغاليون سبتة.

وسنُحاول التطرّق ولو بصفة مختصرة للحالة العسكرية للجزائر في العهد

العثماني، وقد أخذنا مثالاً عن الحاج أحمد باي، وهذا لكونه كان ذو قوّة وسياسة عسكرية فرضت وجودها بقسنطينة، حيث كانت القوات العسكرية في فترة الحاج أحمد باي تتكوّن من المشاة المترتبة تحت قيادة الخليفة، ومن الفرسان أو قوم المخزن، وهذه القوّة الأخيرة أو الخيالة كانت تتكوّن من قسمين متمايزين: القسم الأول: يخضع مباشرة للآغا ويتكوّن من القبائل التالية: "الزناتية أولاد زناتي، السراوية -عرب وادي بوصلاح- وفرسان المدينة، أمّا القسم الثاني فكان أيضاً تحت قيادة الآغا ولكن يُديره كوسيط القياد أو الأعيان. وهذا القسم كان يتكوّن من التلاغمة والتي كانت لها تقاليد عسكرية أكثر منها فلاحية وأولاد عبد النور"[1].

وكان القسم والثاني يُطلق عليه اسم الطهايرية والزمالة، وعمل أحمد باي على إعادة تشكيل جيش منتظم إثر احتلال الجزائر العاصمة، حيث اعتنى بتدريبه على خوض الحرب، ثمّ أعاد أيضاً ترميم أسوار المدينة، وعين مواقع الدّفاع لأنه كان يُدرك أنّ المستعمر الفرنسي سوف يشنّ حملاته العدوانية على مدينة قسنطينة، وكان نشاط قواته العسكرية ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول يتولى العمل بالنوبة أو بالنكنة، أمّا الثاني فيقوم بعمل المحلة، كما كانت أهمية المدينة أو المنطقة الاستراتيجية تستلزم إقامة عدد كبير من الصفرية وهي التي تتكون من23 جنديا،. كما كانت القوّة العسكرية التركية تتشكل من عدد كبير من الخيام وتشمل نفس عدد الصفرية من الرجال، وعلى أية حال فإنّ الحاج أحمد الباي قد

(1) الحاج أحمد باي قسنطينة من 1826 إلى 1850، ص43.

أعدّ قواته العسكرية إعداداً قوياً باذلاً كلّ ما في وسعه لتزويدها بالمؤن والعتاد الحربي، كما عبأ الجماهير القسنطينية تحسباً لأيّ اعتداء فرنسي على مقاطعته حيث أدرك نوايا الغزاة في التوسع.

كما سنستطلع عن الأوضاع العسكرية للأمير عبد القادر عند قيامه بمقاومته المعروفة ضدّ الاستعمار الفرنسي والتي كان لها الدّور في نهضة شعب الجزائر، وهذا كما كانت الأوضاع في سنواته الأخيرة.

فلقد «كانت الفترة الممتدّة من نوفمبر 1839 إلى ديسمبر 1847 حاسمة في تاريخ مقاومة الأمير وكفاحه المسلح، كما أنه كانت له مراسلات مع الساسة، المسؤولين، في كلّ من روما وبرلين وفيينا وسان بترسبورغ بروسيا إلى جانب لندرة واسطنبول وباريس واضحة ومدريد وواشنطن كما جاء في رواية فيليب ديستاريوشانتران والتي تحوي حوادث وتفاصيل جديدة عن نشاط الأمير وكفاحه السياسي والعسكري»[1].

فقد كان الأمير عبد القادر متصدراً لقواته العسكرية المناهضة للعدوان والتواجد الفرنسي بالجزائر، كما كان له جيش منظم، وامتاز أفراد جيشه باليقظة والطاعة، والإيمان القويّ بالعقيدة الإسلامية ممّا أهله لإجبار الاحتلال إلى المفاوضة والاعتراف بسيادة الجزائر جزائرية.

6/5- تأثير الأوضاع الثقافية والدينية:

إنّ اتساع رقعة المغرب العربي وتفتحه على كثير من الشعوب الأوروبية والأخرى

---

(1) مذكرات أسير الداي كاثكارت قنصل أمريكا في المغرب، ص 124.

جعل الأثر كبيراً في نشر واستقبال الثقافات العامة للشعوب، وهكذا فقد تفتح المغرب العربي الكبير على الثقافات والحضارة، فالحضارة عند العرب عموماً كانت تدور على ذلك النوع من الحياة المتصف بفنون منتظمة من الملك والإدارة ومن مكاسب العيش ومن الصنائع والعلوم ومن وسائل الدعة والرخاء.

والحضارة عند عبد الرحمن بن خلدون هي غاية العمران، ويُمكننا فهم الغاية هنا بمعنيين: من أنها تشمل خير نتاج المجتمع في الصنائع والفنون والعلوم ومظاهر الدعة والترف، ومن حيث أنها المرحلة الأخيرة للعمران.

فالحضارة إذاً هي حالة الرقيّ والتقدّم في الأفراد والجماعات وتحوّلت في الأوساط الغربية إلى معنى أنثروبولوجي صرف أي إلى الدلالة على حياة المجتمع بكاملها.

فالثقافة هي الإنماء العقلي والأدبي والذي ينتج عنه العادات والمعارف، والمهارات والحياة المنزلية والعامة في السلم والحرب، وتتضمن الدّين والعلم والفن، والحضارة هي حالة الرقي والتقدّم في الأفراد والجماعات.

وكان الفضل في ترسيخ معالم الثقافة العربية الإسلامية بالمغرب العربي للفاتحين العرب وذلك بتقاطر الشعراء على المغرب في عهد الأمويين والعباسيين الذين أقاموا سوق العلوم واللغة والأدب في عصر الولاة، واجتهاد الرّواة في نشر العربية وآدابها بين طبقات المتعلمين من أبناء البلاد، وتمهيد السبيل لظهور نهضة علمية وحركة فكرية بلغت ذروة الخيرة والازدهار في مدّة كلّ من الأغالبة والفاطميين، والأمراء الصنهاجيين، كما

أسس عقبة بن نافع القيروان سنة 51هـ، وصارت دار علم يشدّ إليها الرّحال من جميع أنحاء المغرب، يؤمونها لتلقي أصول اللغة وفروعها وقواعد الأدب وفنونه على أساتذة قادرين، تمكنوا من العلوم اللسانية وتفننوا في تأليف الكتب في أغراضها بما يُضاهي ما كان يصدر من كبار النُحاة واللغويين في بلدان المشرق، وكانت قاعدة أخرى للنفوذ العربي تقع في وسط إقليم الزاب؛ تلك الحاضرة هي طبنة، فقد لعبت دوراً هاماً في عهد الرومان، وقد تضرّرت من غارات البدو في عهد الفوضى والاحتلال الوندالي إلى البيزنطي.

كما كان لبني الأغلب ثلاث حواضر كبرى تزخر بالعلماء والأدباء اثنان بالقطر التونسي، وهما: القيروان وتونس والثالثة بالجزائر وهي طبنة، وكان يُقابلها تيهرت وتلمسان بالجزائر أيضاً وسجلماسة، ونكور بالمغرب الأقصى، هذه هي عواصم الثقافة في المغرب العربي لذلك العهد[1] حيث ساهمت هاته الحواضر مع العوامل الأخرى في ترسيخ الهوية والثقافة العربية الإسلامية.

وأخذت الثقافة العربية الإسلامية تظهر جلياً في هذه الفترة، ولكن الفقه طغى على الفنون الأخرى، بحيث نجد الفقهاء أكثر عدداً من الأدباء وأولئك أنفسهم لهم إلمام كبير بالفقه، لأنّ الحالة الاجتماعية كانت تدعو إلى تعاطي العلوم الدّينية أكثر من غيرها، فتمحي بقايا الجاهلية، وبذل الفقهاء جهوداً لا تُنكر، لازموا الدّروس في المساجد ومنازلهم، وكتبوا التآليف، وأصبحوا يستفتونهم ويستعينون بهم في حلّ مشاكلهم، وقاطعوا

[1] الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج، ص81.

مبادئ المعتزلة والخوارج ورفضوا رفضاً قاطعاً كلّ المبادئ الآخذة بالقياس والإجماع، وهو ما أخذ به أبو حنيفة، وتمسكوا بالقرآن والسنة تمسكاً شديداً، وأكثروا من الأخذ بما جاء في مجالس أنس بن مالك τ، الذي بقي مذهبه وثبت رغم محاولات الشيعة أن يُجبروا أهل السنة على الانحياز إليهم والأخذ بمبادئهم.

وقد أنجبت الجزائر الأغلبية أعلاماً شاركوا في دراسة الفقه وروايات الحديث، فمنهم إسحاق بن أبي عبد الله بن عبد الملك الملشوني شيخ أمراء بني الأغلب، جالس الإمام سحنون بالقيروان وأخذ كلّ منهما عن صاحبه، والفضل بن سلمة بنَ حرير الجهني البجاني دخل هو الآخر القيروان وتخرّج على يديه في الفقه عدد كبير من ذوي المكانة العلمية والتحقيق العلمي، وأبو جعفر أحمد بن نصر الداودي دفين تلمسان، وأبو الوليد مروان المسيلي، وقد نجح المسلمون العرب المتواجدون بالمغرب العربي من بسط ثقافتهم الواسعة المتشبعة بروح الثقافة الإسلامية وتمكنوا من نشر العلم والدّين والأخلاق الفاضلة رغم كلّ ما حلّ بالمغرب العربي من حركات وأفكار دينية؛ كالشيعة والإباضية والسلفية والتيجانية القادرية، وقد كان النصف الأول من القرى 18 هو الفترة التي بدأ فيها الصراع بين التيجانية القادمة حديثاً لغرب إفريقيا من الشمال والطريقة القادرية التي سبقت إلى تلك المنطقة وتأصلت بها منذ عدّة قرون، وكان لكلّ من القادرية والتيجانية دور كبير في نشر الإسلام والتمكين له في كامل الغرب الإفريقي، وبما أنّ القادرية كانت أسبق، فهي التي كان لها أتباع أكثر حتى القرن 19، وقد كانت الخلافات في البداية محصورة في نطاق

الجدل، «فلمّا ظهر الحاج عمر الغوتي وأسس جيشاً لنشر التيجانية منذ 1846، تحوّلت الخلافات إلى العنف، فأخذت شكلاً من المعارك الواسعة لم تنته إلاّ بعد منتصف القرن 19»[1]، وبفضل تلك العوامل وعلى أساسها كان المغاربي ينظر إلى غيره من الأجناس ويقيس معاملاته وارتباطاته وفقها، وتحددت معظم علاقاته مع بني جنسه ووطنه وملته على ضوء تلك العوامل.

(1) الحضارة العربية والتأثير الأروبي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء، ص93.

الفصل الثاني

العوامل المؤثرة في تحديد علاقات المغاربة فيما بينهم ومع الأوربيين

1-أنظمة الحكم

توفرت مجموعة من العوامل والظروف هيأت الطريق للرجل المغاربي باختلاف موقعه ومهنته لتكوين صورة واضحة عن الأجناس الأخرى التي تم التعامل معها أو الاحتكاك بها مثل الأتراك، العرب، الأوربيون، ويعود الفضل في ذلك إلى أسباب فسحت المجال لهؤلاء للدخول إلى أرض المغاربة بدوافع مختلفة تجارية، سياسية، دينية، فنية، وتركوا في نفوس المغاربة عبر أجيال عديدة عدة أوصاف وملامح تشكل معالم تلك الصورة التي توارثها المغاربة جيلا بعد جيل، وقيست مختلف المعاملات على ضوئها، ومن بين تلك الأسباب نجد بنية أنظمة الحكم التي بضعفها تستقطب مطامع الأجانب وبقوتها تصدر ثقافتها واقتصادها وهيبتها وتحدد مقاييس المعاملات مع غيرها.

1/1-نظام الحكم في المغرب الأقصى :

يُعتبر النظام القائم آنذاك في المغرب الأقصى بلا نزاع والأكثر ملاءمة للهياكل الاجتماعية القبيلة والعائلة؛ فالعائلة المالكة في هذه البلاد ترتكز على نسبها النبوي الشريف المضبوط أكثر من نسب أيّ قبيلة من القبائل الكبرى، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ الملكية الوراثية هي في الواقع ملكية منتخبة، ذلك أنّ السلطان يتلقى البيعة من المدن الكبرى والقبائل وفصائل الجيش تماماً مثل شيوخ القبائل الذين يستمدّون سلطتهم من اختيار منظوريهم، لا من استعمال القوة، ومع ذلك فإنّ هذه الطريقة التي يتم بها انتخاب السلطان تقتضي ضمنياً الاعتراض على السلطة إذا لم يتمّ الاتفاق على اسم

مترشح، وعندئذ يُمكن معارضته بمترشح آخر ينتمي إلى نفس الأسرة، فلمّا تُوفي مولاي يزيد في سنة 1792، افترقت الكلمة بالمغرب الأقصى حيث بايع الجنوب مولاي عبد الرحمن، في حين بايع أهل مراكش أخاه مولاي هشام، وتمسك الشمال بدعوة مولاي مسلمة شقيق مولاي يزيد، أمّا مولاي سليمان الذي ملك حتى سنة 1822، فلم يُبايعه سوى أهل فاس، والعبيد، والمماليك، والبربر، وقد قضى أربع سنوات قبل أن يتمكن من تركيز سلطته، ودخل مراكش سنة 1796، وطوال تلك الأزمنة الخاصة بالوراثة على العرش لم يكن الولاء للعائلة المالكة محلّ نقاش، وإنما كانت النزاعات المحلية تغتنم تلك الفرصة لتتبلور حول اختيار السلطان.

ومن ناحية أخرى، كانت الحياة الاجتماعية كالتربية والقضاء والشعائر الدينية إلى غير ذلك منتظمة حول القبيلة أو القرية أو المجموعة الحرفية أو العرقية، أمّا وظائف الدولة، فقد كانت مبسطة للغاية، فهي تكاد تكون قاصرة على جمع الضرائب، وحفظ الأمن، ويُمكن أن يُشيّد السلطانَ أعمال البرّ والإحسان كأن يفتح خزائنه للرعية عندما تُهدّد المجاعة أنحاء البلاد، ولكن كلّ ذلك لم يكن له أيّ تأثير كبير في ميزانية الدولة.

وقد ترتبت على هذا التوزيع للأدوار نتيجتان طبيعيتان : من جهة انعدام أيّ جهاز إداري بصورة تكاد تكون تامة، فلا وجود لسلك موظفين أجراء، ولا وجود لإدارة مركزية تضمّ موظفين تُعينهم الدولة، خلافا لما كان نظام الحكم يعرف من تطور في الدول الأوربية، أمّا الأشخاص المحيطين بالسلطان، فهم مجرّد مستخدمين أكثر من كونهم

وزراء، وفي الأقاليم تقتصر مهمة العمال على حفظ الأمن في الطرقات والأسواق وجمع الضرائب، وبصورة عامة وشاملة هي السهر على أمن وراحة السكان.

من ناحية أخرى، فمن طبيعة مهام الدولة وحدودها أن يتغافل الناس أحياناً عن ضرورة وجودها، وبناءً على ذلك كانت الثورة –التي هي أولاً وقبل كلّ شيء إضراب عن دفع الجباية– تُمثل ظاهرة دائمة في الحياة الداخلية بالمغرب الأقصى، ويستطيع الحاكم التصدّي لها بالوسائل التالية تعزيز الجيش أو إخضاع المتمرّدين بحدّ السيف، بما في ذلك الاستعانة بالقبائل المخلصة للسلطة، وبثّ الشقاق في صفوف الثائرين بواسطة أعوان المخزن أي السلطة المركزية أو الاعتراف بالرؤساء المحليين الذين يستطيعون بصورة مباشرة، بفضل الحدّ من صلاحيات المجالس، إخضاع السكان للسلطة المركزية، ويسير خلفاء السلطان سليمان في هذا الاتجاه لاسيما منهم مولاي الحسن، غير مولاي سليمان الذي يُكرّس عهده الطويل المدى في إخماد الثورات المحلية، فبعدما نجح في بسط سلطته بشقّ الأنفس، قام بحملات عسكرية على درعة 1802، وبلاد الريف 1803، ونواحي تازة ووجدة 1804، "وبعد سنة 1811 اكتست الانتفاضات صيغة دموية، واشتعلت نيران الثورة في جميع أرجاء الأطلس الأوسط وتمكّن البربر في وقت ما من أسر مولاي سليمان الذي لم يُنقد حياته إلاّ بفضل ما كان يُحظى به الأشراف من ذرية الرسول صلى الله عليه وسلم من سلالة فاطمة»[1].

وعمّت الفوضى والثورات في عهد حكم مولاي سليمان، فثار أهل المدن والعبيد،

[1] المغرب العربي قبل احتلال الجزائر، ص 108.

وبايعت كلّ فئة سلطاناً جديداً، وهكذا لم يوفق مولاي سليمان إلى بسط سلطة المخزن على كامل البلاد لافتقاره إلى الموارد، وميله إلى التأمل والاستعطاف، أكثر من جنوحه إلى الحرب، وقلة الدّعم من قِبل قوات عسكرية غير منضبطة، وقليلة العدد والتعداد.

هكذا كان النظام السياسي المتبع في المغرب الأقصى يتميز بعدم الاستقرار بفعل الثورات الداخلية من جهة والأطماع الأجنبية من جهة أخرى حيث كان للحروب الصليبية وسقوط الأندلس دور كبير في انتقال الصراع من أوربا إلى شمال إفريقيا.

2/1-نظام الحكم في الجزائر :

نظام الحكم في الجزائر هو نقيض الحكم بالمغرب الأقصى حيث تتمّ عملية انتخاب الدّاي، وكيفية تسيير وظائف الدّولة وعلاقاتها بالرعايا، لكن لا يُساهم في اختيار الدّاي إلاّ أفراد جند الترك، ولا تُشارك المناطق المنخفضة بأية صورة كانت في الثورات العائلية التي تُطيح بأغلب الجالسين على العرش، وقد كان داي الجزائر حتى سنة 1816 رهين جند الترك، فمنذ انتخابه ينفصل عن عائلته التي لا يزورها إلاّ مرتين في الأسبوع، وبعد ذلك التاريخ اعتصم الدّاي "علي خوجة" مع حرمه في القصبة، ونجح في التحرّر من الانكشارية، ورغم كون السلطة في المغرب الأقصى لا تتجزأ، ففي الجزائر كان الحكم موزّعاً بين بعض الأشخاص التابعين للوجق وهم : الخزناجي أي أمين الخزينة ووكيل الخراج الذي يُشبه وزير الشؤون الخارجية حالياً، وصاحب بيت المال الذي يتصرف في التركات التي لا وارث لها، واتساع رقعة البلاد تقتضي تقسيمها إلى عدد من المقاطعات التي يُمارس فيها البايات سلطة فعلية، في حين لا يحتفظ الدّاي بالحكم المباشر إلاّ في

ضواحي العاصمة، وناحية متيجة التي تُشكل ما يُسمى "دار السلطان"، أمّا بقية البلاد فهي خاضعة لسلطة باي تيطري في الوسط، وباي وهران في الغرب، منذ أن غادر الإسبانيون تلك المدينة سنة 1792، وباي قسنطينة في الشرق، وحينما يتسلم الباي خطته التي تُسند إلى المزايد الأعلى، تقتصر صلته بالحكومة المركزية على توجيه مداخيل الجباية إليها مرتين في السنة وزيارة العاصمة كلّ ثلاث سنوات، "ولكن البايات لم يؤسسوا في الجزائر أسرة مالكة على غرار العائلة الحسينية في تونس، ذلك أنّ الدّاي هو الذي يُعينهم ويعزلهم، فقد تمّ من سنة 1790 إلى سنة 1825 عزل ثمانية بايات وإعدام ستة عشر"[1]، وهذا ما يدلّ على تبعيتهم للسلطة المركزية بالعاصمة.

وهكذا فقد كانت السلطة، سواءً في مدينة الجزائر أو في المقاطعات التابعة لها غير مستقرّة ومنحصرة في طبقة مغلقة تتألف من الأتراك المنتدبين من المشرق، والذين يتمّ تجديدهم دوماً واستمراراً، ولكن المناطق المنخفضة التابعة لهذه الطبقة المغلقة الطائشة تتمتع باستقلالية تزيد أو تنقص كما هو الشأن بالنسبة للمغرب الأقصى وتونس سواءً تعلق الأمر بالعمال وهم في الغالب من الأتراك الذين يُشرفون على تسيير الأقاليم بالاعتماد على الحاميات التركية، ويُعينون مشايخ التراب المنتخبين من قِبل سكان القرى إن تعلق الأمر بالقبائل، والطرق الصوفية التي تتصرّف في شؤونها بنفسها بصورة شبه مستقلة عن السلطة المركزية مثل: "آل المقراني في مدجنة، وأولاد سيدي الشيخ في منطقة وهران؛ بحيث لا تختلف علاقات الريفيين الأكثر عدداً مع داي الجزائر أو بايات

---

(1) تاريخ الجزائر العام، ص 128.

المقاطعات عن علاقات سلطان المغرب الأقصى مع رعاياه"[1].

وهنا لا يُمكن بأيّ حال المبالغة في أنّ اعتبار النظام السياسي القائم وقتئذ في الجزائر بمثابة نظام استعماري تُمارس فيه السلطة طبقة مغلقة أجنبية، فالجباية مثلاً متشابهة في الأقطار المغربية الثلاثة، والقوات المسلحة قليلة العدد، ممّا يستوجب الاستعانة بالقبائل المساعدة لجمع الضرائب وحفظ الأمن.

وبطبيعة الحال هذه السياسة المنتهجة في جمع الضرائب بين القرى والقبائل يستلزم أن نُلاحظ أنّ السلطة المركزية قد وفقت إلى حفظ الأمن بصورة دائمة، الأمر الذي ستعجز عنه السلطة الاستعمارية الفرنسية فيما بعد، وذلك بفضل الاقتصاد في الوسائل المتمثلة في مركزية محدودة، وإدارة مبسطة، وجيش قليل العدد والتعداد، إلاّ أنّ السلطة التي كان يُمارسها الدّاي والإدارة التركية، قد أضعفتها انتفاضات السكان قُبيل الاحتلال، سواءً في الجزائر الغربية أو الجزائر الشرقية.

3/1-نظام الحكم في تونس :

لقد كان انتداب جند الترك يتمّ في المشرق حتى سنة 1811، كما كان الشأن بالنسبة إلى الجزائر، وكانت عناصر ذلك الجند متغطرسة وقد تسبّب عصيانها في الانتفاضات التي هزّت تونس خلال 1811 و 1816 و 1829، ولكن تلك الاضطرابات لم تكن فعالة وحاسمة؛ فاعتباراً من سنة 1705 تمكنت العائلة الحسينية من الانتصاب في تونس والاحتفاظ بالسلطة، ولَئن كان مؤسس الدولة الحسينية حسين بن علي تركي ينحدر

(1) المغرب العربي قبل احتلال الجزائر، ص110.

من أب تركي، أصله من مدينة "كندبه" وهي مدينة تقع في جزيرة كريت (Crète) سُميت بها الجزيرة كلها آنذاك، إلاّ أنه لم تعد تربطه صلات وثيقة بالإمبراطورية العثمانية، ويكاد أفراد بلاطه لا يتكلمون اللغة التركية. «أصبحت العائلة الحسينية تُوفّر البايات من بين أفرادها أي تأخذ أكبر أفراد العائلة المالكة وتُنصبه للحكم، ولكن ذلك لا ينفي نشوب أزمات حول الوراثة على العرش لاسيما في سنة 1814 إثر وفاة حمودة باشا الحسيني»[1].

كما أنّ وجود حياة حضرية نشيطة، وظهور طبقة بورجوازية حرفية وتجارية، وارتفاع عدد المتعلمين، كلّ ذلك قد أتاح الفرصة لانتداب عدد كبير من الموظفين ولا خلاف أنّ المعتنقين للدّين الإسلامي، والمماليك المولودين في المشرق قد كانوا يحتلون مكانة مرموقة ضمن أفراد حاشية الباي، ولكن أبناء البلاد لم يكونوا مبعدين عن ممارسة السلطة ومن ذلك أنّ القياد كانوا يُنتدبون من بين أفراد العائلات المحلية مثل عائلة الجلولي التي ينتمي إليها عمال صفاقس والساحل، وعائلة ابن عياد في جربة.

وفي نفس الوقت كان حجم البلاد التونسية، وتشكلها الجغرافي وكثافة سكانها المستقرّين في بعض المناطق من العوامل التي تسمح للسلطة الإدارية بالتحكم في السكان، أحسن ممّا هو الشأن بالنسبة إلى الجزائر.

ومن جهة أخرى كانت العلاقات القائمة بين تونس والأقطار المتوسطية، من جهة، وحاجات التجار من جهة أخرى، تدعو الباي إلى انتهاج سياسة مختلفة تماماً عن سياسة أصحاب بقية الأقطار المغربية، على أنّ شخصية حمودة باشا قد قامت بدور لا يُستهان

(1) المغرب العربي قبل احتلال الجزائر، ص111.

به، من ذلك أنّ هذا الباي البارز من بين الأمراء الحسينيين، قد استغل الحروب الأوروبية لتعزيز جيشه وأسطوله، دون أن يتفطن داي الجزائر إلى ذلك، ثمّ إنه تمكّن من تحقيق استقلال بلاده اتجاه الجزائر، فلما ثار جند الترك، حلّ هذا السلك العسكري، واعتمد على المجندين من أبناء بلده.

ولمّا اضطربت المسالك التجارية من جرّاء الحرب، اغتنم تلك الفرصة لانتزاع سلطة مراقبة التجارة من أيدي التجار الفرنسيين، وتسليم أهمّ جانب منها إلى أفراد حاشيته مثل وزيره يوسف، كما أعاد النظر في التعريفة الجمركية التي لم يطرأ عليها أيّ تغيير منذ سنة 1793 رغم ارتفاع الأسعار، وأمر بإجراء أشغال في ميناء تونس.

"وحرصاً منه على تشجيع الصناعة التونسية تخلى عن ارتداء الملابس الفخمة المستوردة من الشرق، واستعمل الأقمشة المصنوعة في بلاده وخاصة جربة، حتى يكون قدوة لرعيته اتجاه الأجانب"[1].

وهكذا فقد اكتست حكومة حمودة باشا صبغة خاصة بها، بفضل انتهاج سياسة متماسكة ومتواصلة ترمي إلى تعزيز استقلالية الباي وتركيز سلطته، والزيادة في موارد خزينته، وتشجيع مشاريع رعاياه، ففي حين كان داي الجزائر والتابع للانكشارية الجندي الأول من جنود المملكة كان باي تونس أكثر من ذلك بكثير، "وقد ظهرت الدولة التونسية في عهد حمودة باشا في مظهر دولة مترابطة مع المجتمع، وهذا الانتهاج للحكم كان نتيجة

(1) المغرب العربي قبل احتلال الجزائر، ص112.

لنهاية الغزو في البحر، وانخفاض ما كان يُوفره من موارد، وعودة التجار الأجانب»[1].

2-بنية المجتمع المغاربي – المغرب الأوسط نموذجا:

تذكر كتب التاريخ أنّ سكان المغرب العربي الأوائل "الأمازيغ" سمّوا بـــ"البربر" من قِبل الرومان، ثمّ المغاربة بعد دخول العرب حاملين الدين الإسلامي، واعتنق المغاربة كلهم الإسلام، وتعرب القسم الأكبر منهم، أمّا القلة فحافظت على طابعها البربري مع تمسكها بالدين الإسلامي، وبذلك أصبح سكان المغرب مسلمين عرب، وعاشوا كله في وئام حتى دخول الاستعمار الفرنسي.

وعند أخذنا للجزائر نموذج في هذا البحث، ارتأينا الرجوع إلى بعض الدراسات، وكيف كان التقسيم الاجتماعي للجزائر في عهد الدولة العثمانية، حيث تُشير بعض الدراسات إلى "أنّ عدد سكان الجزائر العاصمة قد بلغ خلال القرن السابع عشر حوالي 100000 نسمة، منهم 30000 أوروبي، وعند احتلال الجزائر من طرف فرنسا عام 1830 لم يكن في العاصمة سوى 32000 ساكن منهم 18000 عربي، 4000 تركي، 1000 قبائلي، 2000 زنجي، 2000 كولوغلي – أي ينحدر من أب تركي وأم جزائرية – و5000 يهودي»[2]، ولكن "عدد الجزائريين بدأ يتضاءل تدريجياً بسبب الأوبئة والمجاعات[3] والانتقال إلى الريف للتهرب من دفع الضرائب و الضغوط السياسية التي كانت تُفرض عليهم»

(1) المغرب العربي قبل احتلال الجزائر، ص 113

(2) الحوليات الجزائرية ص 74 و 75.

(3) حلقات من تاريخ المغرب الإسلامي، ص 206.

ورغم من وجود إحصائيات رسمية عن سكان القطر الجزائري في العهد العثماني، فإنّ بعض التقديرات تُشير إلى "أنّ عدد السكان في نهاية العهد العثماني كان يتراوح بين ثلاثة ملايين وثلاثة ونصف مليون نسمة، وأنّ 5 % من هؤلاء السكان كانوا يعيشون في المدن و95 % من السكان الجزائريين كانوا يعيشون في الريف"[1].

وحسب التنظيم الاجتماعي السائد في البلاد في نهاية حكم الداي فإنّ التقسيم الاجتماعي والمهني كان كالتالي:

1- الطبقة الأرستقراطية التركية:

تعد الفئة المسيطرة على الجزائر حتى نهاية الحكم العثماني بالجزائر في سنة 1830، وبالرغم من قلة عدد أفراد هذه الجالية التي لم يتجاوز عدد أفرادها سنة 1830م حوالي 20000 نسمة فإنها كانت قوية وذات نفوذ واسع في البلاد، وكان يحرص أفرادها على إبقاء المناصب الحكومية بين أيديهم، وعزل السكان الأصليين للبلاد عنهم حتى لا يُنافسوهم في السلطة والنفوذ.

والأتراك تميزوا عن غيرهم من السكان باتباع تقاليد تركية والافتخار بأعمالهم العسكرية، والاعتزاز بلغتهم الأصلية والعزوف عن خدمة الأرض، وكان معظم الأتراك يُفضلون كسب عيشهم من المرتبات التي يحصلون عليها من خزينة الدولة أو من إيجار المحلات التي تحمل أسماءهم أو من إيجار البساتين التي يملكونها في المناطق التي يُقيمون بها.

[1] النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية، ص 41.

ولا يفوتنا أن نُشير هنا إلى أنّ "الأتراك كانوا يُفضلون استقدام أبناء وطنهم من منطقة الأناضول في حالة الاحتياج إلى رجال آخرين ويرفضون باستمرار تشغيل أبناء البلد إلاّ عند الضرورة"[1].

ولهذا بقيت العلاقة بين الأتراك وسكان الجزائر تتصف بالجفاء والعداء والنفور حتى يوم مغادرة الأتراك لأرض الجزائر، وهذا السلوك يختلف عن سلوك أتراك آخرين في تونس ومصر، حيث عملت الأسرة الحسينية في تونس على خلق التقارب والتعاون بين أبناء البلد والحاكمين الأتراك والشيء نفسه حصل في عهد محمد علي حيث حصل تقارب بين سكان مصر والطائفة التركية بذلك البلد.

2- جماعة الكراغلة:

وهي الجماعة التي برزت إلى الوجود بفضل تزاوج السكان المحليين مع الأتراك إلى درجة أنّ عددهم بلغ في نهاية القرن الثامن عشر بمدينة الجزائر حوالي 6000 نسمة.

كما تزايد عددهم بشكل ملحوظ في مدينة تلمسان، "وبالرغم من انتمائهم إلى آباء من أصل تركي فإنّ الكراغلة لم يحصلوا على امتيازات أو يُشاركوا في الحكم"[2]، ولم يكن لهم الحق في الانتساب إلى الجيش أو الحصول على مناصب إدارية بحكم أنهم قد يتحالفون مع أبناء الجزائر الأصليين، وكان الكراغلة يملكون ثروات ويستثمرونها في المزارع ويترفعون عن خدمة الأرض أو القيام بأعمال يدوية.

[1] التاريخ السياسي للجزائر، ص 73 و 74.
[2] تلمسان عبر العصور دورها في سياسة وحضارة الجزائر، ص 119.

3- المهاجرون الأندلسيون:

«كانوا يُشكلون قوة تجارية هائلة بالجزائر حيث ساهموا في تنمية التجارة وإنشاء صناعات رفيعة بالبلاد وقد ارتفع عددهم بالجزائر بعد أن قامت إسبانيا بطردهم بصفة جماعية سنة1610»[1]، وبما أنه لم يكن في إمكانهم الالتحاق بالجيش والوظائف العليا بالدولة، فقد توجه معظمهم إلى التجارة والصناعة، حيث أظهروا مهاراتهم وكفاءاتهم بفضل الأموال التي جلبوها معهم من الأندلس وخبرتهم الكبيرة في ميادين صناعة الأسلحة والبارود والنجارة والخياطة وصناعة الخزف.

وقد اشتهروا أكثر من غيرهم في تجارة الجملة وتمويل السفن بالبضائع، كما اشتهروا بإنتاج الحرير في مدينة القليعة، وزراعة قطن جديد في مستغانم.

أمّا أبناء البلد الأصليين فقد كان معظمهم يشتغلون بالزراعة والتجارة، وتميز بنو مزاب بتواجدهم في الحمامات العمومية والمجازر والمطاحن، أمّا الزنوج فكانوا يشتغلون كغسالين وخبازين وخدم.

4- فئة اليهود:

بالرغم من وجود عدّة فئات أجنبية مسيحية فإنّ الطبقة البسيطة التي ارتفع شأنها هي جماعة اليهود، لأنهم كانوا يتعاملون مع الداي وقادة الجيش "الرياس" ويقومون بشراء وبيع البضائع أو الغنائم التي يحصل عليها رجال الجيش،» كما اشتهر اليهود بعمليات السمسرة والقيام بدور الوساطة في كلّ العمليات التجارية إلى درجة أنه أصبح من

(1) التاريخ السياسي للجزائر، ص 73 و 74.

الصعب على أيّ عربي أن يبيع دجاجتين بدون وساطة مأجورة من أحد اليهود»[1].

وقد اغتاظ سكان الجزائر من الكسب الفاحش والأموال الهائلة التي تحصل عليها اليهود على حساب الدولة الجزائرية وسكانها إلى درجة أنّ أحد الجنود الانكشاريين غامر بحياته «وأقدم يوم 28 جوان 1805 على قتل زعيم الجالية اليهودية نفتالي بوشناق عند خروجه من قصر الجنينة، حيث خاطبه بعبارته المشهورة السلام عليك يا ملك الجزائر، ونتج عن هذا الاغتيال نهب الحي اليهودي وقتل الداي مصطفى سنة 1805/1798 المتعامل مع كبار التجار اليهود وذلك يوم 30 أوت1805»[2].

وإذا حاولنا التطرق إلى النظرة السسيولوجية لتركيبة شعوب المغرب العربي نلاحظ أنّه عرف عدّة تركيبات وأنظمة سايرته في تكوين حضارته في حوض البحر المتوسط، ورافقتها أحداث و أوضاع متعددة، كان لبنية المجتمعات المغاربية والتنظيم القبلي دور أساسي في توجيه تلك الأحداث ورسم معالم الصورة.

3-التنظيم الاجتماعي:

تُمثل القبيلة في القطر المغاربي أو أحد فروعها وحدة اجتماعية وسياسية، كما تُمثل أيضاً وحدة اقتصادية، حسبما سيأتي ذكره فيما بعد، ومن ناحية أخرى تتمتع القبيلة كذلك باستقلالية إدارية نسبية، ذلك أنّ الضرائب على وجه الخصوص كانت موزعة بين المجموعات، وترجع إلى كلّ مهمة ضبط أساس الجباية والسهر على جمعها، على أن

[1] النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية، ص 46.
[2] التاريخ السياسي للجزائر، ص 75.

يضمن التعاضد الجبائي للقبيلة، ومن الناحية القانونية أيضاً، ينبغي تسوية جميع النزاعات أمام المجلس أو الحاكم المنبثق من المجموعة، وإذا أصبحت مصالح المجموعة المعنوية والمادية محلّ جدال، فإنها تأخذ حقها ولو بواسطة الحرب ضدّ مجموعة أخرى.

ولكن كلما دعت الحاجة إلى ذلك يُمكن اللجوء إلى السلطان، ذلك أنّ كلّ من باي تونس وداي الجزائر وسلطان المغرب كانوا حريصين على القيام بدور قاضي القضاة بكلّ دقة.

ويتسم القضاء بصيغته الفورية، حيث يصدر الحكم في الحين دون أن يسبق المحاكمة أيّ تحقيق، «ويتم تنفيذه حالاً، كما يتسم القضاء بطريقته المباشرة، حيث يَمثل المدّعون بين يدي السلطان دون واسطة المحامي»[1].

ويُمكن توقيف العمل بالتحكيم العائلي والإطار المحلي، لاسيما إذا كان المدّعون لا ينتمون إلى نفس المجموعة، وهناك ظاهرة أخرى مزدوجة تتمثل في الجمع بين القانون العرفي والشريعة الإسلامية، وهي ظاهرة موجودة بالخصوص في بلاد البربر بالمغرب الأقصى والجزائر حيث يستطيع الشخص معارضة هذا القانون بذلك، ويختص العرف بمشاكل توزيع الماء وجزر الجنح وبجميع القضايا التي تهمّ القبيلة بأسرها أو المجموعة القروية بوجه عام، في حين يختص القضاء الشرعي بقضاء الأحوال الشخصية، ولكن التمييز بين العرف والشرع ليس دائماً ممكناً من الناحية العملية؛ إذ لا يجوز معارضة سلطة القاضي بأوامر الجماعة، ويبدو أنّ هذا التداخل بين القانونين غير موجود لدى

(1) ثورة ابن غداهم، ص132.

الناطقين بالضاد، ففي البلاد التونسية على الأقل لا يوجد أثر لأيّ عرف مقنّن.

وهكذا رغم أنّ المجتمع قائم على أساس المثال العائلي، فإنّ الانتماء إلى كيان سياسي محدّد، وهو كيان الدولة أو إلى مجال ثقافي واسع وهو المجال الإسلامي يُعدّل الصورة العامة ويمنع من اعتبار المجتمع المغربي متكوّناً من نسيج خلايا مغلقة وصلبة ومحكمة.

ونلاحظ على وجه أحسن تلك الازدواجية بين الانطواء على الذات والاندماج في مجموعة أرحب من خلال الشعائر الدينية؛ حيث تنظيم الحياة الدينية بوجه عام في فضاء اجتماعي ضيق، يتمثل في مسجد واحد على الأقل في كلّ قرية، وفي خيمة تقوم مقام المسجد في كلّ دوّار، ويقوم كلاهما بدور المدرسة لتعليم الأطفال، باعتبارهما يرمزان إلى انتماء الفرد إلى الإسلام ويسمحان له بأداء واجباته الدينية.

ويُضاف في بلاد المغرب العربي إلى المسجد عنصر آخر لا ينفصل عنه أبداً وهو مقام الأولياء الصالحين، فالولي غالباً ما يكون منحدراً من نفس سلالة القبيلة، وهو في بعض الأحيان المؤسس الذي أُطلق اسمه على الزاوية، زيادة على ذلك أنه يُمثل في كلتا الحالتين تحوّل البنية الاجتماعية التي وصفناها آنفاً إلى المستوى الديني والسياسي والروحي.

وفي الواقع فإنّ كلّ قبيلة تعترف بعدد كبير من الأولياء الصالحين المتناثرة قبورهم في منطقتها، والذين يُحظون بإجلال يزيد أو ينقص حماسة.

ويتضمن علم الاجتماع الديني في المغرب العربي ظاهرة أخرى مختلفة تتمثل في الطرق الصوفية التي تتجاوز جدود القبيلة أو القرية وحلفائها خلافاً للأولياء الصالحين، فهي كما أشار إلى ذلك جاك بارك وسيلة تُمكن الفرد من التحرّر من الإطار العائلي العادي واختيار إطار آخر، ذلك أنّ الانضمام إلى طريقة من الطرق الصوفية ينبثق عن محاولة فردية.

وأبرز مثال عن ذلك مؤسس الطريقة الرحمانية بالجزائر المولود في جرجرة ببلاد القبائل، «فإنه لما تُوفي في سنة 1793-94 لم يترك إدارة شؤون تلك الطريقة لأحد أفراد عائلته، وإنما لأحد أتباعه بالمغرب الأقصى، فهذه الظاهرة التي كانت تتميز في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر بحيوية أكبر من ظاهرة التبرك بالأولياء الصالحين، قد أدمجت الإسلام الريفي في صلب الأمة الإسلامية»[1].

ولكنها لم تنجح أكمل نجاح لأنّ الإسلام في هذه الربوع المغرب العربي لم يتمكن تماماً من القضاء على الطقوس القديمة التي لا تدين له بأيّ شيء، ومثال ذلك: حفلات عاشوراء التي كان يُحييها البربَر المقيمون بجبال الأطلس الجنوبي بالمغرب الأقصى، التي وصفها لأووست E.Laoust في سنة 1921؛ حيث بمناسبة الاحتفاء بذكرى وفاة أحد المسنين، أقام له البربر جنازة رسمية ثمّ احتفلوا ببعثه من جديد في مظهر شاب وحّدوا بينه وبين إلاهة الخصوبة، وإثر ذلك نظموا حفل قران للاحتفال بزواج بعض أفراد المجموعة ثم أحرقوا إلاهة الخصوبة.

[1] انظر المغرب العربي قبل احتلال الجزائر، ص8.

ولاشكّ أنّ هذا الاحتفال الذي يجمع بين الزواج والخصوبة غريب عن الإسلام السني، ولكن بلاد المغرب تعرف مظاهر اجتماعية أخرى من هذا القبيل.

ويتضح أنّ المناطق البربرية قد احتفظت على أحسن وجه ببعض الطقوس الدينية التي سبقت انتشار الإسلام، ولكن كلما اتجهنا نحو الشرق تقلصت أكثر فأكثر آثار تلك الطقوس.

وإذا حاولنا النظر بصورة موجزة ومختصرة فإن التاريخ يؤيد على الصعيد الاجتماعي ما اقترحه P.Bourdieu بالنسبة إلى الجزائر، ويسمح بتمديد استنتاجات ذلك الكاتب إلى المغرب العربي بأسره. فلا وجود -حسب رأيه- لأيّ سبب يدعو إلى التمييز بين الناطقين بالعربية والناطقين بالبربرية، وبين المقيمين والرّحل، وبين القبائل المنتمية وغير المنتمية إلى الطرق الصوفية.

فهم جميعاً مشتركون في نفس البنية الاجتماعية أي البنية العائلية المنتسبة إلى الأب وأقاربه، على أنه ينبغي تعديل هذه الصورة، فهناك أشكال سياسية أو دينية مستقلة عن الإطار العائلي تتطابق معه.

كما أنّ الهياكل الفوقية التي تزيد أو تنقص قوة، بالإضافة إلى مخلفات الجاهلية، قد حدّدت تناقضات ثابتة في مجتمعات أقطار المغرب العربي الثلاثة.

وبصورة عامة ينبغي أن نعترف أنّ الناطقين بالبربرية يتمتعون بأصالة حية، ذلك أنهم مازالوا يحتفظون بعدد من خصائص ثقافتهم القديمة، وفي مقدّمتها اللغة، علاوة على

القانون العرفي وبعض الطقوس الدينية الغريبة عن الإسلام. ومن شأن كلّ هذه العناصر أن تُساهم في الحيلولة دون اندماج المجتمع البربري.

ومن مجموع الأقطار الثلاثة، «تُعتبر البلاد التونسية البلد المعرّب على أتمّ وجه، والمتأثر بالإسلام مثله مثل المغرب الأقصى والمجزأ جغرافياً على أضيق نطاق، وتتسم تونس بأكثر تجانس من الجزائر والمغرب الأقصى»[1].

كما أن التنظيم العائلي لا ينفي وجود عدّة مظاهر من عدم المساواة بين القبائل التي تُساهم في ممارسة السلطة والقبائل الخاضعة لها، حيث توجد في الأقطار الثلاثة الجزائر، المغرب، تونس تلك القبائل المحظوظة والمعروفة بالمخزن والتي تتصرف في قطع الأرض وتتمتع بإعفاءات جبائية مقابل ما تُقدّمه من دعم عسكري إلى صاحب البلاد.

ومن ناحية أخرى، «تُحظى بعض القبائل من أجل نسبها المفترض بالتفوّق على عامة الناس، إمّا لكونها منحدرة مباشرة من آل الرسول الأشراف أو من الفاتحين العرب الأوائل، وإمّا لكونها من سلالة أحد الأولياء الصالحين، وهي في كلتا الحالتين تُحظى بهيبة تُميزها عن سائر أفراد المجتمع»[2].

على أنّ التركيبة العائلية ذاتها يُمكن أن تبرز في إطار نشاطها العائلات المحظوظة التي تُسيطر على القبيلة برمتها، أمّا السلطة فهي خاضعة من حيث المبدأ لقاعدة الانتخاب.

---

[1] ثورة ابن غداهم، ص137.

[2] المغرب العربي قبل احتلال الجزائر، ص50.

لقد تبين من خلال دراسات الباحثين في تاريخ الأجيال بالمغرب العربي أنه تمّ الانتقال من نظام ديمقراطي عرفي إلى نظام مشيخي، وهذه ظاهرة حديثة العهد ومعاصرة من ظواهر تعزيز السلطة المركزية في القرن التاسع عشر، ويدلّ النفوذ الذي تُحظى به بعض العائلات الكبرى في الجزائر مثل آل المقراني على عراقة هذه الظاهرة في الأقطار المغاربية.

ورجال السلطة من عمال أو قادة يتمتعون على الصعيد المحلي بجميع الصلاحيات التي يتمتع بها السلطان، ورغم ذلك فقد بينت الدراسات أنهم لا يستطيعون التحوّل إلى حكام في السلطة المركزية للبلد.

ونعود أيضاً بالذكر عن القبيلة المخزنية التي أُعفيت من الضرائب والجبايات، ولكن ليس لها أيّ مورد رزق آخر غير خدمة الأرض التي تضعها الدولة تحت تصرّفها، ذلك أنّ أفرادها يعملون خارج حملات جمع الضرائب كمنتجين مثل غيرهم من أبناء القبائل العادية.

أمّا العائلات المتميزة بالشرف، سواءً من أجل نسبها الشريف أو لأسباب أخرى، فإنها لا تتصرف بالضرورة في ثروة طائلة، ذلك أنّ عدم استقرار سلطتهم، والنزاعات بين الفروع المتنافسة التابعة لنفس الأسرة تُعرقل عملية التمييز الاجتماعي الذي يمكن أن يحدث اضطرابات.

والبنية السوسيولوجية لبناء المغرب العربي قد تميزت بظهور عدّة أساطير والتي

تبحث في أصل هذا المجتمع العتيق. فقد قيل في قصة أولاد سيدي الهاني المقيمين في منطقة القيروان: فقد قدِم مؤسس القبيلة من المغرب الأقصى، وعلى وجه التحديد من الساقية الحمراء، وأنجب ستة أبناء، انحدر كلّ واحد منهم بطن من البطون الستة الحالية، ثم أنشأ كلّ بطن دُوَاراً أي قرية حول قبر جدّه.

وهناك قصة أخرى وبالخصوص في المغرب الأقصى سيرة بني أدمة التابعين لقبيلة سكساوة والذين درسهم جار بارك J.Berque وقد تمّ تحليل هذه المجموعة البربرية في الخمسينات، ولكن الأساطير المتعلقة بها قديمة جداً؛ إذ أنها تعتمد على رسم يرجع تاريخ النسخة المستخرجة منه إلى القرن السابع عشر 17، وحسب التقاليد فإنّ هؤلاء القوم ينحدرون من أحد أشراف الأطلس الجنوبي. "وتُفيد سلسلة نسبهم أنّ أبناء سيدي يحيى بن محمد مغاغ الخمسة قد قدِموا إلى اكسيس منذ خمسة عشر جيلاً، وينحدر الاكسيس الحاليين من هؤلاء المهاجرين الخمسة"[1].

إنّ القصة هذه تتسم بنفس البنية: الهجرة واستقرار الجدّ الأعلى، وانتشار أعقابه في المنطقة وأحياناً تفرّقهم في مناطق أخرى، وسواءً تعلق الأمر بالبربر أو بالناطقين باللغة العربية، أم تعلق بالمقيمين أو بالرحل فإنّ رؤية المجتمع لنفسه تستجيب لنفس التصوّر، فالفرد ينظر إليه الناس كآخر منحدر من نسل واحد، والمجتمع يتصوّرونه كتجمع لعدّة سلاسلات.

ومن المظاهر الأخرى لوجود فكرة سابقة لدراسة الأحداث دراسة علمية: عدم

---

(1) المغرب العربي قبل احتلال الجزائر، ص51.

التمييز بين الأسطورة والواقع، فكرامات الأولياء المندمجة من تاريخ القبيلة، والأشياء الطبيعية متعايشة مع ما فوق الطبيعة. وأسطورة أصل المغرب العربي ذاتها ليس لها أيّ أساس تاريخي إذ أنّ القبائل ناتجة عن تكتل عناصر مختلفة أكثر ممّا هي ناشئة عن خصوبة جدود معترف بهم، على أنّ هذه الصورة بعيدة عن كونها مجرّد تصوّر ذهني أو خرافة مقدّمة إلى الأطفال أو عرض فلكلوري.

لقد رأينا أنه من اللازم لتقديم سكان المغرب العربي، أن نقوم أولاً بتوزيعهم على أساس مقاييس عرفية، فإذا تعذّر علينا الوصول إلى تخيل النسب المشترك عوضناه بالأصل الجغرافي، وهكذا فإنّ الأندلسيين بعد مرور عدّة قرون في وجودهم ببلاد المغرب مازالوا يتذكرون قصة هجرتهم.

ومن ناحية أخرى «فإنّ صلات الرحم داخل نفس السلالة أو بين مجموعات مختلفة يُمكن أن تكون اصطناعية، إلاّ أنّ ذلك لا يمنع من عقد التحالفات الزوجية أو السياسية ونشوب النزاعات»[1].

وأخيراً، تُمثل أساطير الأصل الانعكاس الذهني لهياكل اجتماعية لا تكتسي في حدّ ذاتها أية صبغة أسطورية، وتبرز من خلال جميع مظاهر حياة المجموعة، سواءً في كيفية توزيع الأراضي أو في شكل السكن أو في العبادات والمعاملات.

وهكذا كانت الدراسات حول البناة الأولى لمجتمع عريق عُرف بالمغرب العربي.

(1) المغرب العربي قبل احتلال الجزائر، ص 43.

4-علاقة المغاربة ببعضهم البعض :

و تواصل اللقاح العلمي بين القرويين و جامع الزيتونة خلال القرن التاسع عشر بالتوازي مع تواصل العلاقات السياسية بين البايات الحسينيين و العلويين.

فقد كان الشيخ إبراهيم الرياحي خير ممثل لذلك التواصل العلمي و الثقافي بين البلدين، فقد درس بتونس على الشيخ محمد الفاسي المغربي و تأثر به.

ثم ارتحل الشيخ إبراهيم الرياحي إلى المغرب الأقصى سفيراً عن **حمودة باشا الحسيني** في طلب الميرة و ساف معه الشيخ القاضي عمر المحجوب (ت 1807م) وكان لهما اتصال بعلمائها و أدبائها من أمثال الأديب محمد القرشي السلاوي و أبو عبد الله محمد بن الفقيه السلاوي و غيرهما.

منذ ذلك التاريخ"تواصلت العلاقات بين البلدين على نفس النسق من الاتصالات العلمية و السياسية، فقد عمل كلّ من البايات و السلاطين العلويين على التراسل والحفاظ على مستوى العلاقات الودية بين البلدين، و من أمثلة ذلك إرسال **مولاي عبد الرحمان بن هشام لمصطفى باشا باي** بمكتوب في غرض التعزية بموت أخيه حسين باشا باي سنة 1251م"[1].

ويمكن استخلاص العديد من الملاحظات فيما يتعلق بعلاقات المغاربة فيما بينهم ومع غيرهم؛ حيث كانت تلك العلاقات تتميز بالاستقرار أحيانا وبالتوتر أحيانا أخرى،

(1) تاريخ العرب الحديث، ص108.

وبنيت على أساس توازن المصالح أحيانا، وأحيانا أخرى كانت تتم على حساب طرف معين.

إن الباحث في التاريخ المغربي والغربي خلال العصر الحديث بشكل عام، يجد نفسه منغمسا في زاوية عامة وطبيعية، تتمثل في الصراعات والحروب التي جسدها على حد سواء مؤرخون مسلمون ومؤرخون ورحالة أوربيون، فهل يمكن القول أن طبيعة العلاقات التي كانت تربط الضفتين كانت تكمن في الحروب فقط؟

1/4-العلاقات المتوازنة

لقد كانت فترة هذه العلاقات العامة المتوازنة طويلة جدا، يمكن حصرها من القرن الثامن عشر إلى بداية القرن التاسع عشر، وبشكل آخر من بداية الوجود العثماني بالإقليم المغاربي بعد أن تم الاستنجاد بهم لصد العدوان والأخطار الخارجية الغربية التي عجز المغاربة عن مواجهتها نتيجة التمزق والتشتت السياسي واضمحلال نفوذ الدول المغاربية الداخلي، فإذا تمكن المغرب الأقصى مع نهاية القرن 16م من الانتصار على البرتغاليين بواسطة الجيش السعدي بمعركة وادي المخازن سنة 1578م، ودخل في علاقات متوازنة مع الدول الأوربية، هذا التوازن الذي عمل العلويون من بعد على الحفاظ عليه، فإنها لم تكن كذلك فيما بعد خاصة بين القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر بفعل الحروب الصليبية.

ومن جهة أخرى فقد عملت السلطة الجديدة في الجزائر بداية من 1516، وتونس انطلاقا من 1574 على درء الخطر الإسباني والحد من غاراته على الحوض الغربي

للمتوسط بل أمنت الحدود مما سمح لها بالدخول في علاقات عامة متكافئة مع الضفة الشمالية للمتوسط استمرت حتى القرن الثامن عشر.

2/4-العلاقات السياسية العسكرية

يمكن اتخاذ القرصنة أحد الركائز والسمات الأساسية لذلك التوازن العام، كونها قطاعا منظما بصفة مباشرة من السلطات والطبقات الحاكمة في المغرب العربي والدول الأوربية على حد سواء؛ «هذه الظاهرة التي كانت في نظر الأول بمثابة الجهاد في البحر، وكانت تقابلها قرصنة الشمال الأوربية المسيحية، وكان تصاعد النشاط القرصني وسكونه بحوض البحر المتوسط مرتبطا على العموم بنوعية العلاقات السياسية بين دول الضفتين»[1]، وظهر تأثيره في جميع ميادين الحياة الاقتصادية والثقافية، ورافق ذلك شتى أنواع التنكيل والأسر والتعذيب والاسترقاق؛ فمن ناحية الغنائم على سبيل المثال: «في 4 رجب 1213/ 12 ديسمبر 1798 عادت المراكب إلى مدينة الجزائر بعد أن أخذت مراكب من بلاد اليونان وغنمت منها حمولتها المتكونة من الحبوب والكاغط والصابون والمشروبات الروحية ذات قيمة إجمالية مقدرة بـــ 65864 ريالا»[2].

ونظرا لذلك التفوق النسبي للقرصنة المغاربية قامت الدول الغربية بمحاولات عديدة ومتكررة لإبرام معاهدات سلمية وتجارية مع السلطات المغاربية بتقديم الهدايا الثمينة سنويا حسب ما يشترط عليها تجنبا للقرصنة المغاربية؛ ونلمس في معظم تلك

---

[1] الجزائر وأوربا، ص57.

[2] مقدمات ووثائق في تاريخ المغرب العربي الحديث، المجلد 6، ص325.

المعاهدات مدى ثقل وزن الإقليم المغاربي من خلال بنودها التي تشترط رفع الدول الغربية مبالغ مالية، وأحيانا يطلب منها أن تدفع في شكل معدات بحرية وحربية مقابل إطلاق سراح الأسرى والسفن المحجوزة، ومن بين المعاهدات التي أبرمت بين قوى ضفتي المتوسط تلك التي جمعت بين تونس وفرنسا مع عثمان داي، والتي تقضي إحلال السلم بينهما إلا أنها خرقت مما دفع بالجانب الفرنسي إلى تجديدها في العديد من المرات، وعلى هذا المنوال تسابقت بقية الدول الغربية لنسج العلاقات التجارية والسلمية معها كإنجلترا وهولندا.

ومع نهاية القرن 16م، وبعد 14 سنة من الصدارة المتوازنة استولى الجزائريون على حوالي 350 مركبا وأسروا 6000 إنجليزي، فأجبرت إنجلترا على إبرام الصلح معهم، ولإعطاء صورة عن مكانة الجزائر الدولية من خلال علاقاتها مع الغرب بين القرنين 17 و18 م وهي الفترة التي تكثفت فيها معاهدات السلم والصداقة ندرج بعض ما كانت تدفعه لها الدول الغربية:

- الولايات المتحدة، هولندا، البرتغال، نابلي، السويد، النرويج والدانمارك تدفع ضريبة كل عامين.
- الدانمارك والنرويج والسويد تدفع ضرائب أخرى على شكل أسلحة وحبال ورماح وذخيرة البارود ورصاص وحديد تقدر قيمتها بـــ25000 فرنك لكل دولة.

- إسبانيا وفرنسا وإنجلترا وسردينيا والبندقية ودول أخرى تدفع هدايا دورية للدايات وأعضاء الديوان عند إبرام كل معاهدة أو تعيين القناصل.
- النمسا وروسيا لا تدفعان الضرائب لكن تدفعان الأموال الطائلة لتغذية أسراهما في العديد من المرات.
- مملكة الصقليين تدفع مبلغ 44000 بياستر سنويا؛ 24000 نقدا والباقي على شكل بضائع.
- إنجلترا تدفع 600 جنيه إسترليني كلما جددت قنصلها، ونفس المبلغ لكل من هولندا وأمريكا.

ومع نهاية القرن 17م اشتد التنافس بين الدول الأوربية وخاصة فرنسا وهولندا وإنجلترا في نطاق سياستهم التوسعية من أجل البحث عن أسواق خارجية خاصة بالإقليم المغاربي وبالأخص الجزائر وتونس؛ «فقد حضر إلى الجزائر الكومودور بيك الإنجليزي محاولا إقناع الديوان لإبرام معاهدة تسوي الإنجليز والهولنديين بالفرنسيين في الامتيازات إلا أنه لم يفلح لكون العلاقات بينهما حسنة للغاية بعد بعثة الحاج شعبان لمحمد أمين أفندي إلى فرنسا، ونجاحه إلى حد كبير في حل المشاكل العالقة بين البلدين، ثم توطدت العلاقات أكثر بقدوم الأميرال الكونت تولون لاقتناء أحصنة جزائرية للفرسان الفرنسيين المحاربين بإسبانيا»[1].

(1) Histoire générale de l'Algérie, p384

وعموما كانت الدول المغاربية فيما بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تتمتع بهيبة عسكرية مكنتها من فرض سيطرتها ومعاملاتها وبسط نفوذها في إقليم البحر المتوسط، ومكنها كذلك من الحصول على غنائم معتبرة كانت تسير بها شؤونها وتضمن لموظفيها وجنودها رواتبهم وتستدرك العجز الحاصل في مشترياتها وتخفف من حدة أزماتها، وذلك ما أعطاها القوة للصمود أمام الحملات العسكرية الفرنسية والإسبانية لمدة طويلة؛ حيث ساعدت الوصاية العثمانية على تونس والجزائر في تأخير وإضعاف تلك الحملات وإفشالها أحيانا، وذلك ما ضمن للمغاربة سيادتهم على أراضيهم لمدة طويلة.

وأساس العلاقات بين المغاربة والأوربيين كان مبنيا على المصالح التجارية والنفوذ العسكري والامتيازات المتنوعة ورغبة كل طرف في السيطرة على الآخر وفرض نمط المعاملات المناسب.

"وكانت الصورة التي تميز بها الرجل الأوربي آنذاك لا تخلو من معاني السيطرة والتبشير والاستعمار[1] والاسترقاق والاستعباد واستنزاف الخيرات"

(1) طلوع سعد السعود، ج2، ص147.

الفصل الثالث

أنثروبولوجية الصورة

ونحن بصدد التحدّث عن الأطماع الأوربية التي أدّت في الأخير إلى استعمار المغرب العربي، نسجل أنه من بين كلّ البلاد الأوربية كانت لفرنسا مطامع إقليمية في المغرب العربي، وفي كلّ معاملاتها مع البلاد الإسلامية في تلك الحقبة، إذ لا ينبغي أن نُهمل العامل الدّيني الصليبي الذي ظلّ حياً في قلوب الفرنسيين نحو الإسلام منذ أيام "لويس التاسع عشر XIX"، وهذا العامل كان يتجلى بين الحين والآخر في علاقات فرنسا مع المغرب، وغير المغرب من بلاد الإسلام؛ ففي سنة 1677 ونتيجة للتقدّم الملحوظ في صناعة المدافع والقنابل في فرنسا هاجم الفرنسيون الجزائر هجوماً وحشياً ألقوا فيه عشرة آلاف قذيفة أحدثت خراباً بالغاً ودماراً كبيراً كان له الأثر البليغ في زرع الفوضى والهلع في أوساط الجزائريين (خاصة الجزائر العاصمة)، ولكن الفرنسيين بعد هذا الهجوم بالقنابل اضطروا إلى الانسحاب دون أن تطأ أقدامهم أرض الجزائر أو شواطئها نتيجة المقاومة العتيدة التي تلقوها من السكان و الجيوش الجزائرية.

ونظراً لضعف الجزائر وتونس وسوء النظام الإداري في كلّ منهما، فإنّ المطامع الأوربية كانت مصوّبة تجاه المغرب العربي وخاصة فرنسا التي ظلت ترصد كلّ صغيرة وكبيرة تحدث في بلاد المغرب. وبعد الثورة الفرنسية سنة 1789 واستقرار الأمور فيها بعد فترات الفوضى والمذابح الأولى، نجد نابليون يتطلع إلى غزو الجزائر، فأرسل جاسوساً وطلب إليه أن يُوافيه بتقرير مفصل عن أحوالها[1].

---

[1] تاريخ المغرب وحضارته من قبيل الفتح الإسلامي إلى الغزو الفرنسي، المجلد الثالث، ص 152.

وجدير بالذكر أنّ الأحوال في الجزائر تحسّنت خلال القرن 19 ابتداءً من أيام الدّايات المراديين، فهبط نشاط الغزوات البحرية، ووقع اتفاق مع الولايات المتحدة وست دول أوربية على رأسها بريطانيا ينص على وقف الغزوات البحرية وتأمين السفن، ولم تشترك فرنسا في هذا الاتفاق بحجة وجود انجلترا فيه. وقد تحسّنت الأوضاع وهدأت الأمور بعد ذلك في الجزائر واستقرّت، وأمّنت الطرق البحرية والبرية ونشطت التجارة "رغم أنّ البلاد كانت قد عانت الكثير من جرّاء الأوبئة والأمراض وخاصة الطاعون الذي أهلك الكثير من أبناء البلد"[1].

وصرف الدّايات أنظارهم عن ضرورة خضوع أهل البلاد إلى سلطانهم وسيطرتهم فاستقلت قبائل عديدة عن المجال الذي يسود فيه حكم الدّايات وخاصة في ناحية توقرت وما يليها من الجنوب من أهالي وبدو الصحراء الكبرى، وكثير من المناطق الأخرى الذي انفرجت عن سدّة الحكم السائد.

ولكن مطامع فرنسا في بلاد الجزائر لم تستقر، فالتقرير الذي كتبه الجاسوس الذي أرسله نابليون ليأتي بأخبار الجزائر سيُصبح في الوقت المناسب أساساً لعملية العدوان والغزو الفرنسي على الجزائر.

كانت فرنسا تحتكر التجارة الخارجية الجزائرية تقريباً عن طريق شركة تجارية، وكانت تجني من وراء ذلك أرباحاً طائلة، وتُجار مرسيليا بالذات كانوا يحصلون من الجزائر وتونس على أموال وافرة. فهذه الأسباب جعلت من مطامع الدّول الأوربية على

(1) طلوع سعد السعود، ص 163.

بلاد المغرب العربي تزيد، وترصد وصول أيّ إشارة تُنبئهم بتهيئة الظروف الملائمة لتبني البلاد واستعمارها، ومن بين الدّول الأوربية التي كان لها وقعها ببلاد المغرب هي فرنسا التي دفعتها كلّ الأسباب لاستعمار واحتلال بلاد المغرب العربي (تونس، الجزائر والمغرب الأقصى).

ويمكن تلخيص بعض الأسباب والمطامع الأوربية على دول المغرب العربي كالآتي :

- إنهاك دول المغرب العربي وشعوبه بالحروب الداخلية والخارجية ممّا ولد ضعفا في القوّة العسكرية والخزينة.
- ظهور الدّول الوطنية الحديثة بأوربا ورغبتها في التوسع الاستعماري خارج القارة.
- العداء الشديد بين الصليبين والمسلمين وهذا نتيجة الحروب الصليبية ضدّ الشعوب الإسلامية ورغبتها في الانتقام على أرض شمال إفريقيا.
- الرغبة الشديدة للإسبانيين والبرتغاليين في وضع حدّ للنشاط الذي يُباشره مسلمو الأندلس المطرودين ومنع الدّول المغاربية بمدّ العون لهم.
- احتلال الأوربيين لمواقع استراتيجية هامة وبصفة دائمة، واتخاذها المنطلق الأساسي والرئيسي في التوسع والتوغل داخل البلاد.

- رغبة الأوربيين في التنصير بنشر مبادئ المسيحية، والمعاداة الشاملة والكاملة للإسلام والمسلمين في بلادهم.

وممّا زاد الطين بلة هو انقسام بلدان المغرب العربي على نفسها وتطاحنها فيما بينها مما كان له الأثر البليغ والمباشر في دفع الأوربيين المسيحيين على ممارسة العدوان بكلّ طرقه ووسائله، على المدن والموانئ الساحلية لهذه المنطقة الحساسة من حوض البحر المتوسط (المغرب العربي).

1-صورة الاستعمار :

إن الأهالي كان لهم موقفهم وصورة مشخصة عن الأوربي والمستعمر ساهمت في اتخاذ مواقف من ممارساته وعند الحديث عن كيفية بروز القوّة الأوربية على حوض البحر المتوسط يجرنا الحديث إلى العودة إلى الوراء في أحقاب القرن الثالث عشر 13 حين كان للإسبان والبرتغال وجميع الدّول الأوربية امتيازات مهدت لاستعمار مناطق في المغرب العربي. وسنُركز هنا بالخصوص على كيفية استعمار فرنسا للجزائر التي تعتبر النموذج الأساسي في هذا البحث. ولنبدأ بالتجارة التي كانت تُمارس من طرف فرنسا مع الجزائر ومشكلة الدّيون الملقاة عليها، وعن الأموال التي حصلت عليها من جرّاء تعاملها مع دول المغرب العربي وخاصة الجزائر. "إلى أن أتت المصيبة من قِبل قنصل فرنسي دِيفال DEVAL، الذي كان يُمثل المصالح الفرنسية بالجزائر ويُتاجر لحسابه، وكان يدعو الحكومة الفرنسية إلى غزو الجزائر. وفي يوم من أيام شهر يوليو 1827 جرى بينه وبين

الدّاي "حسين" حوار عنيف في قاعة الاستقبال في قصره، وخرج الرجل، وقد أضمر في نفسه شراً، فزعم كاذباً أنّ الدّاي، في مطالبته إياه بسداد الأموال المستحقة عليه مقابل قمح اشتراه من الجزائر، ضربه على وجهه بمروحة كانت في يده.

«وقد أثبت الباحثون الفرنسيون اليوم أنّ ذلك كان غير صحيح، وأنّ القنصل الكاذب أراد أن ينهب أموال الدّيون –وكانت بدون أرباح– فافترى هذه القصة، وزعم أنّ شرف فرنسا أهين"»[1] والطامعون في خيرات الجزائر صدّقوا هذه الكذبة وهذا الافتراء وجعلوهما سبباً مباشراً في الاعتداء على الجزائر، ومضى الاستعداد للغزو سراً.

«وحكاية غزو فرنسا للمغرب الإسلامي لم يكن لها من أوّل الأمر مبرّر مقبول حتى من وجهة النظر الفرنسية، إنما هي أخذت أهميتها فيما بعد عندما استمرّت واتسع نطاقها وأصبحت جزءاً من السياسة الاستعمارية الفرنسية ومجالاً من مجالات تنافس فرنسا مع إنجلترا وغيرها من بلاد أوربا على تقاسم تركة الرجل المريض[2] (الدولة العثمانية) الذي تلاشت قوته ووحدته.»

ونذكر في هذا الباب قول مؤرخ فرنسي كبير للمغرب وهو "شارل أندريه جوليان" في كتابه المعروف عن تاريخ المغرب العام([3]) تحت عنوان "ديون البكري" : "إنّ عمليات تجارية غير أمينة قام بها تجار يهود في الجزائر بالتعاون مع نفر من أهل السياسة في باريس، ثمّ حدث حادث دبلوماسي أثاره دبلوماسي فرنسي مشكوك في أمره ثمّ قامت

---

(1) تاريخ المغرب وحضارته". المجلد 2. الجزءان 2، ص 378.

2 التاريخ المعاصر، ص98.

3 تاريخ المغرب العام، شارل أندريه جوليان، ص 574.

حملة عسكرية سيئة قادها قائد عسكري سيء السّمعة، ثمّ نصر هزيل لم يلق اهتماماً في الرأي العام الفرنسي، وأعقب ذلك سقوط الأسرة (المالكة) التي ادّعت لنفسها المغامرة، تلك هي بدايات غزو فرنسا للمغرب العربي[1]، والحقيقة هي أنّ غزو الفرنسيين للجزائر كان -إلى حدّ ما- نتيجة لسوء الحكم فيها، فإنّ نظام الدّايات كان منذ البداية نظاماً استبدادياً عثمانياً، أي أجنبياً عن البلاد وسيئاً، ولم يُحاول أحد إصلاحه فازداد مع الأيام سوءاً.

وكان الدّاي يحتكر التجارة الخارجية ويسلم إلى نفر من أسوء تجّار الجزائر من اليهود مهام تسييرها، وهؤلاء التجار اتفقوا مع قنصل فرنسا ويُسمى "ديفال"، الذي أخذ القمح سلفاً من الحكومة الجزائرية إلى حكومة فرنسا، ولكنه استُخدم في تغذية الجيوش الفرنسية في إيطاليا ومصر. وفرنسا كانت تحكمها قُبيل الغزو ملكية يوليو، وعلى رأسها "لوي فيليب"، وكانت ملكية ضعيفة تلعب بها الرّياح، ولعلها ظنت أنّ غزو الجزائر يُقوّي مركزها ولكنّ الشعب الفرنسي كان قد ملّ من هذه السياسات، فلم يُعر أيّ اهتمام لهذه المسألة - أي قضية أو مسألة غزو الجزائر - ثمّ بعدها سقطت ملكية يوليو نفسها وتخلّلتها عدّة اضطرابات سياسية هزّت فرنسا من جديد.

ووقفت الحملة الفرنسية مكانها جامدة سنوات طويلة، والمهمّ لدينا أنّ الغزو الفرنسي للجزائر بدأ في يوليو 1830، وقد تلكأ بعد ذلك كثيراً وسار سيراً سيئاً ولكنه أصبح بعد سنوات طويلة حقيقة وشمل كلّ الوطن الجزائري. وبدأت معه المقاومة بكل

أشكالها، فسُمّي بعصر النهضة في الجزائر، رغم أنّ النهضة ستكون فيما بعد عندما تحرّك الجزائريون لطلب استقلالهم بحركة بطيئة أولاً ثمّ تحوّلت إلى انفجار تحرّري رائع بعد الحرب العالمية الثانية، وهنا تُصبح الجزائر موطناً خالداً من مواطن الجهاد الوطني في التاريخ العالمي. وشعب الجزائر تخلّص من كلّ هذه التجاوزات في حقه بداية من العثمانيين ومنتهياً بالفرنسيين إلى النتيجة المرجوّة وهي الحرّية والاستقلال وساعدت تلك الظروف والأحداث على تكوين صورة حية عن الفرنسيين خاصة في أذهان الجزائريين، من خلال المقاومة المتكررة مثل مقاومة الأمير عبد القادر.

2-صورة المقاومة في الجزائر:

إن المقاومة الجزائرية كانت ذات وزن وأهمية أكسبتها صورة خاصة عند الشعوب المغاربية عامة؛ فقد كانت للأمير عبد القادر صلات دولية واسعة ومتعدّدة ومتنوّعة مع كثير من ساسة العالم، وقادته العسكريين والمفكرّين، وحظي بالتقدير والإكبار من طرف الجميع بفضل مواقفه البطولية الخالدة في الحرب، والسّلم وسعة اطلاعه، وتفهّمه للمشاكل، وعمق ثقافته وتفكيره، وبُعد نظره في القضايا والأبعاد السياسية والعسكرية. وما يزال الباحثون والمنقبون يكتشفون ويُزيحون الستار والغطاء على البعض منها مرّة في أبحاثهم ودراساتهم الجديدة، ذلك لأنّ الأمير كان كثير الاتصال والمراسلات للدّول والملوك والأمراء والعلماء والكتّاب والدبلوماسيين، سواءً خلال معركة الكفاح المسلّح بالجزائر (1380-1847) أو في منفاه بفرنسا ودمشق الشام (1848-1883).

"ففي خلال كفاحه ومقاومته للاستعمار الفرنسي بالجزائر، راسل الملك والحكومة الإنجليزية عن طريق قناصلها بطنجة ومدريد وطلب منهما التأييد والمساعدة المادية بعد أن شرح لهما وقاحة وشراسة الجيش الفرنسي، وعرض على الحكومة الإنجليزية أن يمنحها ميناء "تنس" أو غيره للاستثمار في مقابل تزويده بالأسلحة والماديات الحربية لمقاومة الاستعمار."[1]

وفعل ذلك مع الحكومة الأمريكية وراسلها بواسطة قنصلها بطنجة، وطلب منها أن تُدعّمه وتؤيّده بالأسلحة مقابل منحها ميناءً على الساحل لصالح الأسطول الأمريكي. وراسل السلطان العثماني عبد المجيد والصدر الأعظم بإلحاح من حمدان بن عثمان خوجة، وشرح لهما وضع البلاد، والنكبات المتوالية التي يُلحقها جيش الاحتلال الفرنسي بها، ثمّ طلب منها مساعدة وتأييداً ودعماً سياسياً وعسكرياً. وقد نشر "التميمي" بعض هذه المراسلات وأعاد سعد الله نشر البعض منها كذلك، ويتضح من هذه المراسلات تفهّم الأمير للصراع الدّولي القائم آنذاك بين الدّول الاستعمارية خاصة فرنسا وإنجلترا وسعيه للاستفادة منه إلى أبعد حدّ في كفاحه.

وتوسّط بعض حلفائه في شرق الجزائر وعلى رأسهم "الحسن بن عزوز ومحمد الصغير بن عبد الرحمن بن أحمد بلحاج، بينه وبين بايات تونس ووزرائها، وحاولوا أن يُحكموا الصلة بينه وبينهم لخدمة القضية الوطنية وأرسلوا إليهم باسم الأمير وبأمر منه هدايا كثيرة. وربط الأمير صلاته بوكيل وجق تونس في جبل طارق "زاكي كرطوز"

---

(1) مع تاريخ الجزائر، ص 231

اليهودي وكلفه بشراء الأسلحة والذخيرة وتقديم جوازات سفر أو مرور لمبعوثيه حتى يتمكنوا من قضاء حوائجهم، غير أنّ بايات تونس اختاروا طريق التحالف مع جيش الاحتلال الفرنسي ووبّخوا وكيلهم "زاكي كرطوز" وطلبوا منه أن يكفّ في الحال عن الاتصال بالأمير لأنّ تونس حسبّ تعبير الباي نفسه في رسالته هي صديقة لفرنسا وتُعادي من يُعاديها ويُحاربها.

وراسل الأمير ملكة إسبانيا وحكامها العسكريين في مليلية وطلب منهم التوسط بينه وبين فرنسا وتزويده بالأسلحة والذخائر بعد أن شرح لهم أعمال القتل والنهب للجيش الاستعماري.

"وعندما اشتدّ الخصام بين الأمير عبد القادر وسلطان المغرب الأقصى "عبد الرحمن بن هشام" راسل الأمير علماء مصر وشرح لهم خيانة هذا السلطان وعدّد لهم من جرائمه الأمور الستة التالية : "[1]

- إمداده لجيش الكفار النصارى بحيوانات الذبح بعد أن حرمهم هو منها مدّة 03 سنوات.
- مصادرته 1500 بندقية إنجليزية اشتراها وكيل الأمير للمجاهدين الجزائريين.
- مصادرته 400 بذلة من الجوخ اشتراها وكيل الأمير للمجاهدين أيضاً.
- مصادرته مال أحد المغاربة الذي أوقفه لمجاهدي الجزائر بدعوى أنه أولى به.
- منعه بعض المغاربة من التجنيد في صفوف المجاهدين لمحاربة فرنسا.

(1) مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، ص232.

- اتفاقه مع فرنسا في معاهدة أوت 1844 على اعتبار الأمير عبد القادر خارجاً عن القانون، والعمل على قتله أو اعتقاله وتسليمه لفرنسا أو نفيه من بلاده.

فأجابه الشيخ "عليش" آنذاك بوجوب محاربة هذا السلطان لأنه أصبح مارقاً عن الدّين.

ونُفي الأمير عبد القادر إلى المشرق، واتخذ دمشق الفيحاء مستقراً له ومقاماً، واصل نشاطه واتصالاته بالقادة والساسة في أوربا وإفريقيا وآسيا، وقام بعدّة رحلات إلى باريس ولندن والأستانة والدّيار المقدّسة، ودُعي للمشاركة في حفل تدشين قناة السويس عام 1869. وعلى إثر سقوط الإمبراطورية الفرنسية الثانية ونابليون الثالث وقيام ثورة المجلس البلدي بباريس وإعلان نظام الجمهورية الفرنسية الثالثة يوم 04 سبتمبر 1870 استشار الأمير صديقه "جون درِليسبس" وكيل وجق تونس في باريس في تهنئة رجال العهد الجمهوري الجديد.

ولمّا اندلعت ثورة المقراني والحدّاد وصبايحية الحدود الشرقية عام 1871 التحق ولده محي الدّين عن غير علم منه ورضاه بمنطقة الجريد، واتصل بثوّار أولاد خليفة بتبسة وعزم على المشاركة في هذه الثورة، فغضب عليه واستنكر منه ذلك. وراسل قناصل فرنسا في دمشق وطرابلس وتونس وراسل وزراء تونس وطلب من الجميع أن

يُعيدوا ابنه إلى المشرق، وتبرأ منه ومن عمله ووصفه بالمجنون والعاق وكاتب ابن عمه "الطيب بن المختار" في مدينة معسكر ليحث الناس على مقاطعته وعدم اتباعه[1].

وعلى إثر فشل المقرانيين في ثورتهم والتجائهم إلى تونس، أرسلوا وفداً إليه في دمشق فتوسط لهم لدى باي تونس وطلب منه ومن وزرائه أن يُحسنوا استقبالهم ويُكرموا مثواهم أو يُغيروا وجهتهم نحو دمشق، وهذا ما يُسفه ادّعاءات الفرنسيين بأنه كان ضدّ ثوّار ثورة 1871 وحركتهم، خاصة أولاد مقران.

وتدخل الأمير فعلا لعلاج الثائرين : محمد الكبلوتي بن الطاهر رزقي، وبن ناصر بن شهرة لدى بايات تونس ووزرائها، وعندما عزم الفرنسيون على إنشاء مشروع البحر الدّاخلي الإفريقي في منطقة شطوط الجريد التونسي خلال عقد السبعينات وأوائل الثمانينات من القرن 19، وأظهر سكان المنطقة تردّداً وامتناعاً، لأنّ البحر المفتوح سيغمر قراهم وأراضيهم، توسّط أصحاب المشروع، وعلى رأسهم "دوليسبس" بالأمير عبد القادر وطلبوا منه أن يُكاتب السّكان ويُقنعهم، فامتثل وراسلهم ممّا يدلّ على بُعد نظره وتفهّمه وإدراكه للأهمية الاقتصادية لهذا المشروع الضخم.

وإذا صحّت رواية "فيليب ديستاريور شانتران" فإنّ الأمير كانت له مراسلات كذلك مع الساسة، المسؤولين في كلّ من روما، برلين، فيينا وسان بترسبورغ (روسيا) إلى

(1) مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، ص233.

غيرها من البلدان الأوربية والآسيوية تحوي حوادث وتفاصيل جديدة عن نشاط الأمير وكفاحه السياسي والعسكري.

فلقد كان الأمير عبد القادر مصدراً لمراسلات عديدة إلى جهات كثيرة من العالم، ولاشكّ أنّ هذه المراسلات تؤلّف في حدّ ذاتها تراثاً هاماً لتاريخنا الوطني.

3–صورة العلاقات القائمة بفعل الاستعمار:

تشكلت المعالم البارزة للصورة أثناء الفترة الاستعمارية، وساعدت على تجليها المقاومات المتكررة والفترة الممتدة من 1839 إلى ديسمبر 1947 حاسمة في تاريخ مقاومة الأمير وكفاحه المسلح، فبعد أن تمّ نقض معاهدة وادي تافنة عام 1839، ركّز الفرنسيون كلّ قواتهم ضدّه، فانتزعوا منه عاصمته (معسكر) ومعظم مدن الناحية الغربية (تلمسان، سعيدة، ...) واضطرّ الأمير أن ينسحب إلى الجنوب. وفي يوم 16 ماي 1843 ضاعت من الأمير زمالته في معسكر "عين طافين" بجبال عمور، في غيابه هو، وكان ذلك ضربة قاضية له ولقواته وأنصاره. فاضطرّ أن يلتجأ بمن بقي معه من الأهل والأتباع إلى داخل المغرب الأقصى حيث أنزلهم في "دائرة خاصة" بعين زوزة في جبال الرّيف قُرب سواحل البحر المتوسّط، وكان يأمل أن يُحقق ثلاثة أهداف هي :

1– الحصول على تأييد ومساعدة من إخوانه المغاربة، للجهاد والمقاومة.

2– إدخال الاطمئنان على نفوس أتباعه والمؤيّدين له ولكفاحه.

3– تأمين دائرته في زمالته عندما يعود للجهاد داخل الجزائر.

ورغم أنّ الأمير أخضع القبائل الخارجة على طاعة السلطان، وأعادها إلى سلطته، إلاّ أنّ السلطان المغربي لم يعبأ بذلك، واعتذر للأمير عن تقديم العون له في جهاده، لأنه منشغل بقمع العصاة الذين خرجوا عن طاعته فترك الأمير دائرته حيث هي بجبال الرّيف، وعاد إلى الجزائر لمواصلة المقاومة جنوب عمالة وهران، واتصلت الحكومة

الفرنسية بسلطان المغرب الأقصى فأخبره أنّ جبال الرّيف هي خاضعة لإمارة الأمير عبد القادر، فكلّف الجنرال بيجو كلاً من الضابطين : "بيدو" و"لامور بيسير" بالزحف على منطقة الحدود، ونزلا بقرية "لالة مغنية" في ماي 1844، فانتُهكت الحرمات فتدخّل حاكم "وجدة" المغربي "محمد بن القناوي" وطلب من القوات الفرنسية الانسحاب والتحم معها في معركة قوّية هزمته وسلبت منه كلّ ما كان له من مؤن وذخائر للحرب.

وبعد هذه الهزيمة ارتاع سلطان المغرب واشتدّ خوفه من هزيمة القوّات الفرنسية لكلّ حكامه مع زيادتها في القذف من الموانئ لمدينة طنجة والصويرة "موقادور" فارتدّ وخضع لحكمهم ممّا زاد في استياء شعب المغرب الشقيق آنذاك، فكان ردّ فعل سلطان المغرب هو طرد الأمير من بلاده.

"وبعد أن عاد الجنرال "بيجو" إلى الجزائر عاد الأمير أيضاً إلى الجنوب (الصحراء) ثمّ إلى الشمال والتحق بغليته، وجبال الونشريس، والظهرة واصطدم بالقوّات الفرنسية وأعوانها عدّة مرّات في "وادي رهيو" بحوض الشلف."[1]

ورغم ما لحق بالأمير من هزيمة إلاّ أنه كان ذا شجاعة قوّية وذا صلابة في وعد جيوشه بالنصر ورفع الظلم، "كقول الأمير في البيتين الشعريين يتبنى فيه هدف جيشه الذي هو الدّفاع عن الإسلام بالتضحية والفداء :

"الدافعــون عن الإسلام كلّ أذى   يا نفس قد غلت : قدراً وأثــماناً

[1] مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، ص 238.

كم غمّة كشفوا كم كربة رفعوا وكم أزاحوا عن الإسلام عدوانا[1]

4- صورة العلاقات القائمة بفعل مقاومة الشعب:

يظهر تأثير الصورة على قرارات ومواقف الشعب جليا في المقاومة الشعبية التي تكونت بفعل ممارسات المستعمر وصورته القذرة عند الجزائريين رغم سياسة فاليه التي اطمأن بها على مركزه، وعظم شأنه، فقد كان رجل القصر المعيَّن من الملك "لوي فيليب" وباسمه سُمّي "فيليب فيل"، ثمّ أثبت بعد ذلك أنه رجل إداري قدير ولم يُظهر ميلاً إلى توسيع رقعة سلطانه، بل اهتمّ بتنظيم الأرض التي استولى عليها، ولكن كان عليه إذا أراد أن يُؤمِّن طريق المواصلات بين قسنطينة والجزائر أن يُخالف نصاً من نصوص المعاهدة المعقودة بين الأمير عبد القادر الذي كان يُحرِّم على الفرنسيين أن يمتدّوا شرقي المتيجة. وكان الأمير ميالاً إلى التفاوض، وكان في الحقيقة في حاجة إلى السّلام مع فرنسا لكي يقضي على الفتن القائمة في منطقة سلطته وإنشاء إدارة عربية فيها على النظام التركي.

وخلال سنتين من السّلام مع الفرنسيين تمكّن من إخضاع القبائل الضاربة في منطقة جنوبي وهران وتيطري، وأرغم الطريقة "التيجانية" على الخضوع له والتخلي عن زاويتها الرئيسية في قصر عين مهدي، ولكنه عجز عن كسب مودّة أهل بلاد القبائل، وقد قسّم بلاده إلى خلافات (مناطق) وأقسام أخرى يحكمها آغوات أو قادة (جمع قايد) وهؤلاء الرّؤساء كانوا يُختارون إمّا من أقاربه أو من كبار الشخصيات الصوفية.

---

[1] الأمير عبد القادر الجزائري متصوّفا وشاعرا، ص 247.

وقد أنشأ الأمير عبد القادر جيشاً من عشرة آلاف مقاتل من بينهم ثمانية آلاف من المشاة المطوّعة مسلّحين بأسلحة مشتراة من الفرنسيين. وفي بعض الأحيان كان يصنع البارود والمدافع، وأنشأ على حافة منطقة "التلول" سلسلة من الحصون في "بغار" و"تاجدمت" و"سعيدة" وظيفتها مراقبة القبائل وحماية قوّاته إذا اضطرّت إلى التراجع، ولم يضع الماريشال "فاليه" أي صعوبة في طريقة الأمير بل كان يمدّه أحياناً بالقنابل كما حدث في حصاره لعين مهدي، «ولكنه لم يستطع الاستمرار في هذا التصرّف عندما وجد أنّ عبد القادر يُحاول مدّ سلطانه إلى قسنطينة، وقد عيّن الأمير عبد القادر خليفة له في بلدة "بويرة" في إقليم حمزة، ومن هناك كان يستطيع أن يقطع الاتصال بين قسنطينة والجزائر».[1] وهكذا كانت حكومة الأمير شاملة من حيث نطاق المكان من الغرب إلى الشرق، ومن حيث الجنس والأسلحة، ومن حيث أيضاً ناحية السياسة والدبلوماسية في التسيير. وبصفة عامة، فقد كانت رسائل الأمير عبد القادر إلى السّاسة الأوربيين جدّ سياسية وفيها طلب المعاونة المادية، فقد كانت رغبة الأمير هي التوسّط بينه وبين فرنسا والحصول على مساعدة عسكرية وسياسية، ومواقف السّاسة الإسبان من ذلك، خاصة وزير الحرب، والوزير الأوّل ووزير الشؤون الخارجية، والملكة، وحاكم مليلية العسكري، وحاكم غرناطة العام، والتي يُمكن تحديد محتواها بصفة عامة على الشكل التالي :- تحدّثت الوثائق عن رغبة الأمير في وساطة إسبانيا بينه وبين فرنسا، حتى يتمكّن من العودة إلى الجزائر، ورغبته في السماح لمبعوثيه الدّخول إلى "مليلية" ليُسلِّموا

[1] تاريخ المغرب وحضارته، ص387.

لحاكمها الإسباني رسائله، ويتفاوضوا معه، وفي مقابل ذلك عرض الأمير خدماته على إسبانيا إذا حقّقت له عودته إلى وطنه، وقد ألحّ الأمير على هذه الوساطة أكثر.

- ذكر فيها سعي الأمير للحصول على بعض الأسلحة وقطع الغيار لبعض المدافع وخيوط الفتيل، والقضبان الحديدية والسجلات (الدفاتر) والفوسفور (كبريت).

- وصفت مساعي الأمير للحصول على القمح، الشعير، الخرطال، من حاكم مليلية، بالتبادل بالتمور والأصواف والسمن والعسل والأغنام وغيرها من البضائع التي يحصل عليها هو من الصحراء، وقد حرص الأمير كثيراً على الحصول على الحبوب بعد أن اشتدّ عليه حصار المغاربة والفرنسيين معاً، واقترح على حاكم مليلية إقامة سوق خاصة لعملية التبادل هذه تحت حراسته.

- ذكر فيها شيء عن عداء القبائل المغربية وخاصة "الفلايعة" للإسبان في مليلية.

- ورد فيها وصف لقضاء مصالح خاصة لحاكم مليلية ومنها قيام الأمير بشراء حصان له.

- أشارت إلى مواقف الساسة الإسبان من علاقات الأمير عبد القادر ومراسلاته معهم، التي حبذها البعض كثيراً، وألحّ على ضرورة استغلالها إلى أبعد حدّ لصالح إسبانيا، وعلى رأس هؤلاء "فرانسيسكو باشيكو" الوزير الأوّل ووزير الخارجية، بينما حذّر البعض منها، واختاروا ملازمة الحذر حتى لا تستثار فرنسا الصديقة والحليفة، بل إنّ

البعض منهم طالبوا بطمس هذه القضية ودفنها تماماً حفاظاً على صداقة فرنسا، وعلى رأس هؤلاء وزير الحرب الجنرال "مانويل دومازايدو".

- تطرقت إلى المصاريف التي أُنفقت في هذه القضية، والمراجعات التي تمّت في شأنها، وإصدار الملكة أمراً باستقطاعها من ميزانية الجوسسة والأسرار الحكومية.

- تحدّثت عن محاولة التعرّف على ما يجري بين المغرب وفرنسا من مفاوضات في شأن الأمير، وطلب كلّ من الأمير وحاكم مليلية تزويد بعضها البعض بآخر الأخبار عنها.

- وصفت سيطرة الأمير على القبائل المغربية المحيطة بمليلية وإخضاعه لها، وأهمية ذلك بالنسبة للإسبان.

- أشارت إلى اقتراب الأمير من مليلية، ووضّحت بدقة وتفصيل اللقاء الذي حصل بينه وبين حاكمها "ديميتريو دو بينيطو".[1]

وهذا نموذج من رسالة الأمير عبد القادر إلى رئيس الوزراء البريطاني وهي كالتالي : "عن إذن مولانا أمير المؤمنين، سيّدنا الحاج عبد القادر نصر الله آمين، إلى الوزير الأعظم في دولة الإنكليز المدبّر لأمرهم، المتصرّف في جميع ما يُصلح بهم وبأحوالهم، جلّت أو قلّت، "المسطر" الكبير بالدّولة المذكورة، السلام على من اتبع الهدى، أمّا بعد :

فإن الغرض الموجب لهذا الكتاب، إنك ذو رأي سديد، وعقل متّسع مديد، وأيضاً بلغنا على لسان الكوازيط (يعني الصحف) أنّ كبراء الإنكليز أشفقوا من حالنا، ونالوا

[1] مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، ص247.

الكلام في شأننا، وقالوا أنّ الفرانصيص ظلموا العرب وأضرّوا بهم، ولابدّ أن نتكلّم في أمرهم، وبلغنا أيضاً أنهم قالوا : إذا احتاج الأمير عبد القادر إلى دِرَاهِمْ أو سلاح أو غير ذلك، نُسلّف له ونبيع له كلّ ما يحتاجه. فلمّا تأملنا كلامكم هذا، وجدناه كلام العقلاء المنصفين الذين يرضون الصلاح ولا يُحبّون الفساد، وسرّنا ما قلتم، كثر خيركم وشكر قولكم، ولِذا تممتم ربط المحبة بيننا، لا يكون إلاّ كما تُحبون منّا، ولا علمنا محبتكم، وأنكم تذكروننا بخير. نُحبّ منكم أن تعملوا فينا مزية كبيرة وذلك إنّ لنا مكاتب إلى اصطنبول، وليس لنا طريق إليها من غيركم، فنُحبّ منكم أن تبعثوها على أيديكم إلى السلطان عبد المجيد، وأخرى إلى الوزير الأعظم، وأخرى إلى قبطان باشا، وأخرى إلى صاحبنا كاتب رشيد باشا في اصطنبول، ونُحبّ منكم أن تحرصوا لنا على ردّ الجواب من عندهم، فإننا عرفنا محبتكم ونُصحكم، فلذلك جعلناكم واسطة في هذا الأمر، لأننا نقطع أنّ مكاتبنا تصل على أيديكم إلى أهلها، ويأتينا جوابها مع أيديكم أيضاً، لأنّ ليس لنا طريق لا في البحر ولا في البرّ، إلاّ من عندكم، وكان مُرادنا أن نبعث لكم هدية تُناسب مقامكم، ولازلنا عازمين على بعثها إن شاء الله، لكن ليس لنا طريق نبعث لكم منها، وتعمل مزية كبيرة إذا حرصت على الكنباني (أي الشركة حالياً) الذين أعطيناهم تنس (ميناء مدينة الشلف) كما في علمك، يأتوننا بالعزم وينزلون بها، لَكان فيه خير كبير لنا ولكم، وأمّا السلطان العصمالي، فنحن منه وإليه، ونُحبّكم أنتم أن تكونوا واسطة بيننا وبينه، وتجعلوه يكون

معنا، ويُعيننا على الفرانصيص، لأنّ الأرض له، وله الكلام فيها، وأنتم لكم الكلام معه، ومع غيره في هذا الشأن، ونُحبّ منكم الجواب، والله الموفق.

في 25 شوال 1257هـ أي 10 ديسمبر 1841".[1]

في أعلى الرّسالة ختم الأمير، دون إمضائه.

هذا النموذج من الرّسالة التي بعث بها الأمير عبد القادر إلى رئيس الوزراء الإنكليزي يُبيّن مدى توسّع الأمير في بعث سياسته ونفوذها في الأقطار الأجنبية، رغم ما عانه من الحصار من طرف الجيش الفرنسي.

وبهذا النموذج نكون قد بيّنا ولو ملخّصاً من رسائل هذا الملف الهام عن صلات الأمير عبد القادر بالسّاسة الإسبان وحكّامهم العسكريين بمليلية في السنة الأخيرة من كفاحه الشاق والطويل ضدّ الجيش الفرنسي، وضدّ قوّات الملك المغربي المعادي.

وبداية المقاومة من طرف الأمير عبد القادر كانت هي السّهم المضيء لإعلان المقاومات ضدّ الاستعمار الفرنسي التي وصّلت الجزائر إلى مركز الاستقلال والتحرّر بفضل رجالها المخلصين والشهداء خلّد الله مكانته عنده، وهذا النموذج أيضا يدل أكثر مما يدل على دراية الأمير بسياسة الأوربيين ومعاملاتهم فيما بينهم في شتى المجالات، وكذلك مواقفهم من القضايا العربية والمغاربية خاصة، ويعني ذلك أنه كانت لديه صورة واضحة عن الرجل الأوربي ونواياه الدفينة نحو العرب والمسلمين، وقد أحسن توظيف تلك الصورة في رسم معاملاته ومراسلاته وفي كسب ود بعضهم وتجنب المواجهة مع البعض

[1] بحوث ووثائق في التاريخ المغربي، ص 134 و135.

الآخر والحيلولة دون تحالفهم ضده بما يضر مصالح المجتمع المغاربي عامة والمجتمع الجزائري خاصة.

5- أثر ودور الصورة في الحياة العامة :

وتظهر أهمية الصورة خاصة أثناء فترة الاستعمار الفرنسي للدول المغاربية التي لعبت الجزائر من بينها دورا رائدا في التصدّي للغارات الأوروبية.

فقد فَقَدَ المغرب العربي وحدته السياسية الكبرى بعد سقوط دولة الموحّدين على أيدي الدويلات المحلية (الحفصية، الزيانية والمرينية) ممّا جعل الفرقة وحبّ السيادة والحكم يغرس الضّعف في المغرب العربي، فشجّع ذلك الأوربيين على شنّ المزيد من الغارات والحروب المدمّرة على كامل المناطق الساحلية للإقليم.

وبعد ذلك استقرّ الأتراك بمدينة الجزائر وألحقوها بالدّولة العثمانية بطلب من السّكان، وإشارة وتشجيعاً من خير الدّين، على أساس أنه أكبر القوى الإسلامية التي يُمكنها أن تُقدّم العون والحماية.

كما لعبت الجزائر دوراً فعالاً مع القوّات العثمانية، في تأديب القراصنة الأوربيين ووضع حدّ لأطماعهم، ونشاطاتهم الصليبية العدوانية ضدّ المدن والموانئ الساحلية لبلدان الشمال الإفريقي الإسلامية، وتتبّعهم على عقر ديارهم بالسّواحل الأوربية الجنوبية في

اليونان، وإيطاليا وكورسيكا وسردينيا، وصقلية ومالطة وإسبانيا والبرتغال وفرنسا، بل بعض بلدان شمال أوربا كالدنمارك، وبريطانيا وألمانيا»[1].

وقد مرّ العهد التركي في الجزائر بأربعة أدوار ومراحل أساسية وبارزة، كان نفوذ الدّولة العثمانية في بدايتها قوياً ومحكماً، وفي النهاية أصبح رمزياً وشرفياً بعد أن حلّ مجلس ديوان الآجاق، قوّة جديدة مع أواخر القرن 17 وما بعده، وعمد على الاحتفاظ لنفسه بالسّلطة والنفوذ الفعليين في المشاكل الدّاخلية، وفي السّياسة الخارجية، وطبعاً كان لبُعد الجزائر عن مركز الدّولة العثمانية بالمشرق دور كبير فيما يخصّ هذه الأحداث.

ولكنّ الشعب الجزائري بصفة عامة، كان شديد التعلّق بالخلافة العثمانية، على غرار كلّ الشعوب الإسلامية، التي لم تكن تتصوّر السّلطة والدّولة بدون الخلافة الإسلامية.

ورغم الخلافات والمشاكل التي كانت تظهر وتبرز بين الحين والآخر، فإنّ العلاقات الرّوحية لم تتأثر، واستمرّ سكّان الجزائر في تعلّقهم بالدّولة والخلافة العثمانية، وفي تعاطفهم معها حتى في أزماتها السياسية والعسكرية المختلفة، وفي مناشدتهم لنجدتها بعد سقوط بلادهم تحت سيطرة الاحتلال الفرنسي.

غير أنّ الكتّاب الأوربيين عامة، والفرنسيين بصورة خاصة حاولوا بكلّ جهودهم وإمكانياتهم أن يُشوّهوا هذه العلاقات الطيبة والحسنة، ويُصوّروا الأتراك في أبشع صورة وأخشنها، فنعتوا الحكم التركي بكونه إقطاعياً وطاغياً ومتخلفاً، وزعموا أنّ الأتراك غزاة

---

(1) علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوربا، ص306.

أجانب، استعماريون لا هدف لهم سوى الغزو والقرصنة البحرية، وادّعى بعضهم بأنّ دولتهم وإمبراطوريتهم هي "دولة الانتحار العسكري"، وأصرّوا على هذه المزاعم إلى حملة الاحتلال الفرنسية لمدينة الجزائر وما بعدها، حيث وزّع ضباط هذه الحملة منشوراً زعموا فيه للسّكان بأنهم قدِموا إلى الجزائر لتحريرهم من ظلم الأتراك وحكمهم الطاغي.

وهذه الدعوى لا أساس لها من الصّحة تعمّدوها ليُبرّروا غزوهم واحتلالهم للجزائر وكلّ بلدان المغرب العربي الإسلامية التي كانت تحت حكم الأتراك والدّولة العثمانية، أمّا الأتراك فهم إخوانهم في الدّين جاءوا إلى الجزائر وكلّ بلدان الشمال الإفريقي بطلب من سّكانها ليُنجدوهم، ويردّوا عنهم الغارات والهجومات الأوربية المكثفة.

ومن مظاهر تعلّق الجزائريين المستمرّ بالأتراك طلباتهم المتكرّرة للاستنجاد بهم، ومنها ضدّ الغزاة الفرنسيين الاستعماريين، وتبشير زعمائهم للجماهير الشعبية بقُرب وصول المساعدات العثمانية خلال كلّ ثورات التحرير المختلفة التي خاضوها.

هذا دليل على أنّ شعوب المغرب العربي كانت متعلقة بالجانب الرّوحي والدّيني أيّما تعلق، وذلك لطلبها المساعدة والعون من الإخوان الأتراك، والتي هي الآن مزيج اختلط بروح الظروف والأزمنة.

فهناك الحاج أحمد باي الذي تزعّم المقاومة في "بايلك" قسنطينة والشرق الجزائري، فراسل السلطان العثماني محمود الثاني عدّة مرّات، وطلب منه النجدة والمساعدة «فأرسل إليه "كامل بك" مبعوثاً ووجّه له نجدة عسكرية على أربعة مراكب

بحرية تحمل اثني عشر مدفعاً وكمّيات من الذّخائر الحربية ومجموعة من العساكر، ولكنّ باي تونس حجز هذه الكمية بضغط من السّلطات الفرنسية، ولطمعه في ضمّ إقليم قسنطينة إليه كما أكدّ ذلك الحاج باي نفسه في مذكّراته».[1]

والأمير عبد القادر راسل السلطان العثماني عبد الحميد، والصدر الأعظم، وطلب منهما العون والمساعدة بنفس الرّوح والرّغبة وزعم أحد الشيوخ الذين شاركوا في الثورة التي قام بها سكّان النوافة وفرجيوة بالبابور، والشمال القُسنطيني عام 1864، بأنه تلقى تعليمات من السّلطان العثماني بالبلاد المقدّسة بأن يتزعّم هذه الثورة ويحثّ النّاس عليها، على أن تصلهم نجدة منه في الوقت المناسب.

وعندما ظهر محي الدّين بن الأمير عبد القادر في منطقة الحدود الشرقية للجزائر أواخر عام 1870 وأوائل 1871 أشاع أتباعه وأنصاره بأنّ جيشاً عثمانياً من ستة آلاف جندي في طريقه إلى تونس والجزائر لتحريرها وإعادة سيطرة الدّولة العثمانية عليها، ولُوحظ فعلاً وجود ضباط أتراكٍ يُجيدون العربية في الجنوب التونسي يقومون بالدّعاية لصالح الدّولة العثمانية ووصلت إلى ميناء تونس أسلحة وذخائر لصالح الثوار الجزائريين، ولكنّ باي تونس حجزها وأمر الضباط الأتراك بمغادرة تونس تحت ضغط السّلطات الفرنسية الاستعمارية بالجزائر.

وقد ادّعى الباشا المقراني زعيم ثورة 1871 نفس الفكرة وأشاع في النّاس قُرب وصول نجدة السّلطان العثماني، وظهرت بالجزائر خلال هذه الثورة "الجمعية الخيرية

(1) ثورات الجزائر في القرن 19 و20، ص35.

الإسلامية للجزائر المحمية" وراسلت الصدر الأعظم محمد نديم باشا، وطلبت منه ومن الرّسميين العثمانيين الدّعم والمساعدة لمحاربة جيش الاحتلال الفرنسي وطرده، ولامت بعض الشخصيات العثمانية التي وعدت بتقديم العون ولم تَفِ بوعدها وعرضت على السّلطان العثماني واحداً من ثلاثة أمور وهي :

1- توسيط بعض الدّول الأوربية لكي تُسلّم فرنسا بسيادة السلطان العثماني على الجزائر.

2- مطالبة فرنسا بالتنازل على الجزائر مقابل مبلغ مالي تعهّدت الجمعية بدفعه.

3- إعلان الحرب على فرنسا لطردها بالقوّة إذا رفضت أحد الحلّين الأوّلين.

أشادت هذه الجمعية بشجاعة سكّان الجزائر واستعدادهم التّام لمحاربة الفرنسيين إذا وفّرت لهم الأسلحة الكافية والكفيلة بالقضاء عليهم.

وخلال حروب الدّولة العثمانية ضدّ الرّوس 1877 تعاطف الجزائريون معها وفكّر بعضهم في الذّهاب إلى هناك للمشاركة في هذه الحرب إلى جانب العثمانيين وتحدّث الضباط الفرنسيون على هذا التعاطف ومنهم الضابط "تروملي" في الجنوب الوهراني.[1]

وحتى مطلع القرن العشرين لم يتوقّف أمل الجزائريين في نجدة الدّولة العثمانية لربط رجال الحركة الوطنية الأوائل نشاطهم بها وأطلقوا على أوّل هيئة سياسية أسّسوها اسم : "حزب الجزائر الفتاة" على غرار "حزب تركيا الفتاة" وذلك عام 1912.

[1] ثورات الجزائر في القرن 19 و20، ص 133.

إنّ كلّ هذه الأمثلة والنماذج تؤكّد مدى تعلّق الجزائريين بالأتراك العثمانيين ودولتهم، وما ذلك إلاّ بفضل الصّلات الدّينية الوثيقة والعلاقات الأخوية المتينة التي بدأت منذ مطلع القرن السّادس عشر ولم تنقطع أبداً حتى اليوم.

وفي الجزائر اليوم مجموعة من الباحثين يؤكّدون على هذه الصّلات ويُلحّون على تعميقها وتمتينها "اعترافاً بالدّور البارز والمُشرق الذي لعبه الأتراك والعثمانيون في حماية الجزائر من الاحتلال الإسباني ومن التمسيح والتنصير".[1]

فمن حيث طريقة معايشة الشعب المغاربي مع الاستعمار فكان يتّصف بالإحساس بالظلم، وأخذ ونهب لأملاك الدّول والشّعوب، فظهرت مقاومات من تونس والجزائر ووصولاً إلى المغرب الأقصى، وخير دليل على هذه المقاومات نتطرّق إلى مقاومات الجزائر ومميّزاتها وخصائصها.

فقد كانت الجزائر مسرحاً لعدد كثير من المعارك والثّورات والانتفاضات، دامت أكثر من 70 سنة وهي تتصف بأنها :

كانت أحداث كثيرة ومكثفة في العقدين الأوّلين الثلاثينات والأربعينات، وفيما بعد ذلك أخذت تقلّ وتتقلّص بسبب الضغط الاستعماري المتزايد، والمكثف، مادياً وبشرياً، وتطبيقه لسياسة التقتيل والطّرد الجماعيين وأسلوب التجويع والتجريد من الأملاك العقارية والمنقولة.

[1] طلوع سعد السعود، في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن 19، ص 109.

كان زعماء هذه المقاومة تنقصهم فكرة التخطيط وتعوزهم الأسلحة الكافية والمتطوّرة على عكس عدوّهم، ولم يكونوا يملكون سوى الحماس الدّيني والوطني كسلاح معنوي والفؤوس والعصي والخناجر والسّيوف، وبعض بنادق الصيد العتيقة، كسلاح ماديّ وهي ضعيفة الفعالية عند مقارنتها بالسّلاح الأجنبي للعدوّ.

لعب القادة والشيوخ الدّينيون وخاصة الرحمانيون دوراً هاماً وبارزاً وفعالاً في هذه المقاومة، وكانوا يرتمون فيها أفواجاً وجماعات، دون تردّد ومن ضمنهم : الشيخ بوزيان، والحاج موسى الأغواطي بالزعاطشة، وبن عزوز في واحة البرج ومحمد بن عبد الله في تقّرت وورقلة والأغواط، والجعدي والحاج عمر في جرجرة، والحدّاد وعزيز في صدّوق، وبن فيالة، ومولاي الشفقة، وعمر بوعرعور في البابور ... والأمير عبد القادر في القيطنة ومعسكر، وبوعمامة في المقرار الفوقاني والتحتاني، وأولاد سيدي الشيخ في الأبيض سيدي الشيخ.

فلقد لعب الدّين (والنازع الرّوحي) دوراً بارزاً في المقاومة الجزائرية وارتبطت كلّ الثورات بشيوخ الدّين واعتمدت عليهم في تجنيد النّاس لها، وحفّزهم على حمل السّلاح، لأنّ الجزائريين في القرن الماضي، والحالي لم يكونوا يُفرّقون بين الدّين والوطنية خاصة تجاه الغازي الأوربي المسيحي، النصراني.

إنّ المقاومة الجزائرية في القرن الماضي وإن ارتبطت بأسماء أشخاص وزعماء عائلات كبيرة أرستقراطية، في معظمها إلاّ أنّ الذين أحسّوا واكتووا بنيرانها وارتموا فيها

بصورة جماعية ولعبوا الأدوار البارزة والمؤثرة فيها هم العمّال والفلاّحون من الطبقات الشعبية الكادحة، ومن هذه الطبقة الشيوخ، الشباب رجالاً ونساءً، ولم تكن لهم أيّ خلفيات أو مصالح شخصية أو امتيازات يُدافعون عنها، ويُضحّون في سبيلها عندما حملوا السلاح وثاروا، وإنما هو الوازع الوطني الصّرف الذي كان ممزوجاً بالعامل الدّيني، كذلك لأنّ الدّين والوطنية شيء واحد عندهم كما هو كذلك في العقيدة والدّين الإسلامي.

6- الصورة من خلال الحركات الوطنية:

في هذا الجانب لعبت الصورة بمختلف أشكالها دورا مهما في تكوين الروح الوطنية لدى الشعب الجزائري، وقد حرص الكتّاب الفرنسيون المعاصرون والمحدثون، ومعظمهم من الضباط والعقداء والجنود على إبعاد العنصر الوطني عن هذه المقاومة الجزائرية ورجالها وقادتها وعمِلوا على ربطها بالأسباب الاقتصادية والاجتماعية الصرفة حتى يُفرغونها من محتواها وأهدافها الوطنية، وحاولوا بالتالي أن يستنتجوا ويصلوا إلى الادعاء بأنّ الجزائريين عنصريون متعصّبون دينياً، وعرقياً، ولا يستطيعون أن يتعايشوا مع الأجانب الأوربيين المسيحيين، ولذلك كانوا يثورون باستمرار ضدّهم وهو مصدر ثوراتهم المتعدّدة ضدّ الفرنسيين، والدّليل في ادّعائهم هو كثرة رجال الدّين الذين يرتمون في هذه الثورات ويقودونها ويُدعّمونها ويؤيّدون زعماءها السياسيين والعسكريين.

وهي دعوة باطلة بالأدلة التاريخية القاطعة، لأنّ الجاليات الأوربية المسيحية كانت تقطن وتعيش بالجزائر قبل حملة 1830 بقرون عديدة في أمن وسلام، ومنها الجالية

الفرنسية بساحل القالة وعنابة والجزائر العاصمة منذ تأسيس مراكز صيد المرجان الفرنسية بساحل القالة وعنابة، وتُمارس نشاطها الدّيني والاقتصادي بكلّ حرّية طالما احترمت قوانين البلاد وأعرافها وتقاليدها ودينها، لهذا فإنّ الجزائريين عنصريون متعصّبون ضدّ الغزاة الأجانب الاستعماريين ليس إلاّ.

ادّعوا أنّ الجزائريين لا يثورون إلاّ عندما يشتدّ عليهم الفقر والجوع والعرى والخصاصة، أمّا عندما تتحسّن أوضاعهم الاقتصادية وينموا ثراؤهم وغناهم، فإنهم يخلدون إلى الهدوء والسكينة ويرضون بحُكم الأجانب لهم واحتلالهم لبلادهم ومنهم الفرنسيون، وهذا يعني في نظرهم أنّ الجزائريين لا يثورون إلاّ من أجل بطونهم الجائعة وأجسامهم العارية، أمّا الفكرة الوطنية والدّافع الوطني فبعيد عنهم وغير ذي موضوع، وهو ادّعاء استعماري بحت وخطير في نفس الوقت تبنّاه معظم من كتب على ثورات الجزائر في القرن 19 والقرن 20 أمثال "لويس رين" و"روبين" و"شاتولي" وغيرهم، وحتى الذين كتبوا عن هذه الثورات في القرن الحالي ممّن لا يزالون أحياء لم يتخلّوا عن هذه الفكرة بل أخذوا بها وتقمّصوها وتبنّوها.

ادّعوا أنّ معظم هذه الثورات في زعمهم ليست وطنية جزائرية لأنها اندلعت بسبب إيحاءات وإيعازات من الخارج من طرف قوى أجنبية، فاتهموا المقراني والحدّاد ومحيي الدّين بن الأمير عبد القادر بعمالتهم للألمان والدّولة العثمانية، واتهموا الشريف بوشوشة، وبن ناصر بن شهرة والشريف محمد بن عبد الله بعمالتهم للسنوسيين، واتهموا آخرين

بعمالتهم للإنجليز المنافسين لهم في النشاط الاستعماري، وهي نفس المواقف والادّعاءات التي حاول الفرنسيون عبثاً، أن يُلصقوها بثورة 01 نوفمبر 1954 عندما ادّعوا أنّ متزعّميها "فلاقة" وقطّاع طرق خارجون عن القانون دُفعوا من جهات أجنبية ليُقلقوا أمن البلاد، وراحة السّكان"

وممّا تجدر الإشارة والتطرّق إليه وملاحظته أنّ السلطات الفرنسية الاستعمارية خلال عهود ملكية جويلية من 1830-1848 والجمهورية الثانية من 1848-1852 والإمبراطورية الثانية 1852-1870، اتّبعت سياسة استمالة العائلات الأرستقراطية إليها وإسناد وظائف كبيرة لزعمائها مثل القايد، الآغا، والباش آغا، والخليفة، وشيخ العرب لتتمكّن بواسطتهم من إخضاع السّكان إليها بسهولة إلى منتصف عقد السّتينات ثمّ أخذت بعد ذلك في تغيير سياستها وأصبحت تميل إلى تطبيق الحكم المباشر، والاستغناء عن وساطة هذه العائلات الكبيرة وزعمائها بعد أن قضت حاجتها ونالت كلّ حوائجها منها ومنهم، فعمدت إلى التقليل من نفوذها، وتقليم أظافر زعمائها وتحطيم كبريائهم، وأنزلتهم من مركز الخليفة وشيخ العرب إلى الباش آغا، ومن الآغا إلى القايد وهكذا، وهذا ما فعلته مع زعماء عائلات : أولاد مقران في مجانة، وأولاد سيدي الشيخ في الأبيض سيدي الشيخ، وأولاد المختار في "المدينة" وأولاد بن صيام في "مليانة"، وأولاد بن عاشور في "فرجيوة".

"وقد ألحّ الفرنسيون كثيراً على هذا الجانب وركّزوا عليه وعلى رأسهم : "رين" مؤرخ ثورة 1871 ليؤكّدوا الطابع الشخصي لثوراتهم ويُبعدوا عنهم العنصر الوطني"[1].

لكنّ إرادة الشعوب لا تُقهر، وبالعكس تدمّر كلّ الادّعات التي تقتل روح المواطنة والتعاون بين شعوب المغرب العربي الكبير.

وبالرّغم من الضّعف الذي أصاب المغاربة في مقاومتهم للغزاة إلاّ أنه كان له الدّافع الأساسي في كيفية الخروج من مأزق الاستعمار، وزاد من روح التعاون الثقافي والتجاري في محيط البحر المتوّسط وعبر جنوب المغرب العربي، والدّليل وصول بعض المؤن من الإخوان المغاربة فيما بينهم للتعاون معاً في مقاومة الاستعمار وقهر الغزاة.

7- بنية الصورة في عهد الاستعمار:

إن الصورة لها بنيتها الخاصة في كل مرحلة وظرف ولها وزنها في صنع مختلف العلاقات وكان للاستعمار الصدى الكبير في علاقات المغاربة فيما بينهم، وفي كيفية تغيير نمط معيشتهم ومعاملتهم في التجارة الدّاخلية والخارجية.

فلقد كانت التجارة الخارجية تحتلّ بالنسبة إلى المغرب مكاناً أسمى ممّا كان لها في الجزائر وتونس، خاصة وأنّ السلطان كان يفرض على الصّادر والوارد ضرائب تتراوح ما بين 10 و25 في المائة من القيمة.

(1) ثورات الجزائر في القرن 19 و20، ص 318.

ولقد أورد لنا "بيدود سانت أولون" في المذكرات التي كتبها عن مهمته في المغرب بيانات هامة عن التجارة فقال: « إنها كانت في سنة 1793 احتكاراً بأيدي اليهود والنصارى»[1].

في هذا المجال سوف نتطرّق للحديث عن التجارة الخارجية للغرب وكيفية تعاملها مع بلدان المغرب وذلك حسب نوع المرجع وأبحاث المؤلف؛ فقد كانت "سلا" و"تطوان" هما المركزين اللذين حظيا بظروف جعلت التجارة مع الخارج فيهما أيسر وأجلب للمنفعة ممّا كان في غيرها من البلاد، أمّا التجارة عن طريق "آسفي" و"أغادير" فقد كانت أقلّ حجماً، ومنهما كانت تُصدّر حاصلات "تافيلالت" و"السّوس" وأضاف أنّ مدينة "فاس" كانت وكأنها أكبر مخزن تجاري للمغرب. فقد كانت المركز الذي عمل فيه قرابة خمسة آلاف يهودي في التجارة عملاً نشيطاً، وكان أهل الموانئ في المغرب يُعدّون الجلد الأحمر الذي كان أفضل ما يُصنع في بلاد المغرب ومن هنا جاء اسمه في الفرنسية"MAROCAIN".

وكان المغرب يستورد من إسبانيا نوعين من الصّباغ الأحمر " Le vermillon et le Cochenille"، والأوّل كان يُستعمل لصباغة الجلد والقماش والثاني كان يُستعمل لأغراض أخرى كاستعماله للتزيين.

أمّا إنجلترا فكانت تُصدّر إلى المغرب قماشاً ومنسوجات ونوعاً من المحار كان يُؤتى به من "غينيا" حيث كان النّاس يستعملونه عملة، أمّا هولندا، فكانت تُصدّر للمغرب مفارش ومنسوجات ومأكولات من كلّ صنف، وأنواعاً من الأسلاك الحديدية والصفيح

[1] تاريخ المغرب وحضارته، المجلد الثاني، ص274

والصلب، أمّا إيطاليا فقد كانت تُصدّر للمغرب النحاس والكبريت، البارود والخزف والحرير والقطن والفضة الخام والأفيون، وكان العرب واليهود يحصلون على ما هم بحاجة إليه من بضائع من مخازن في أوربا. أمّا بقية البضائع فقد كانت تذهب إلى تجّار العرب في تافيلالت وكانوا يُبادلونها بسلع أخرى، وكانت طرق التجارة عاملة نشيطة مع بلاد السودان.

وكان القناصلة والتجّار المسيحيون في أحيان كثيرة مغامرين يستغلّون المسلمين والمسيحيين على السّواء، ويقول "مويت" أنهم كانوا يشترون من المغاربة فائض البضائع من غنائم حرب البحر التي كان المغرب لا يحتاج إليها ليبيعوها في أوربا بأربعة أضعاف ثمنها. وأسوأ من ذلك أنهم كانوا يتركون أسرى النصارى في قيودهم بين أيدي المسلمين أزماناً متطاولة ويزعمون أنهم يُفاوضون رجال السّلطان في فِدائهم على أعلى سعر يستطيعون الحصول عليه.

وفي بداية القرن 18 كان الفرنسيون أنشط التُجّار الأوربيين مع المغرب وكان السّلطان يُشجعهم على ذلك، ولولا كبرياء "لويس XIV" وقسوته لكسبَ البَلدان كسباً عظيماً من التجارة بينهما. فقد أبلغ السّلطان إسماعيل "لويس XIV" أنه مستعدّ لأن يُصدر الأوامر بتأمين السفن الفرنسية من غزوات مقاتلة البحر، ويستطيع كذلك أن يأمر بإطلاق حرّية التجارة بين البلدين والموافقة على أن يُصدِّر لفرنسا النحاس وحديد الزهر، وكان أخوه "مولاي الرّشيد" قد حرّم ذلك، وكان البَلدان يستطيعان تبادل السّفراء والمتاجر

والعلاقات الطّيبة خلال العشرين سنة الأخيرة من القرن السّابع عشر، ولكن "لويس XIV" رفض ذلك بسبب كبريائه وتمسّكه بما كان يزعم من أنه الملك المسيحي جداً.

وهذا الملك المسيحي جداً "Le roi très chrétien" "لويس XIV " أظهر في تعامله مع مولاي إسماعيل غباءً حقيقياً أدّى في النهاية إلى إفساد العلاقات بين الجانبين، فقد كان ينظر إلى "مولاي إسماعيل" من برجه المسيحي الرفيع -معتقداً في دواخل نفسه- أنه يتعامل مع إنسان أدنى منه لأنه مسلم، ولم يكن هذا بغريب "وإن أخذ عند الملك الفرنسي صورة الخيلاء الكاذبة. فهكذا كان "مارتن لوثر" ينظر إلى الإسلام وأسوأ من ذلك كان "فولتير" ينظر إلى الإسلام نظرة فيها خبث وسوء نية، والإسلام عند الأروبيين آنذاك كان ضلالاً بعيداً، وهذا هو منطق الكنيسة".[1]

وفي أوائل القرن 18 تدهور أمر البحرية الفرنسية واستطاع الإنجليز أن يُثبّتوا أقدامهم في جبل طارق، ثمّ إنّ السياسة الإسبانية تجاه المغرب تغيّرت وابتعد أمل السلطان في استعادة "سبتة" وبذلك تدهورت أحوال المغاربة وتشعبت انشغالاتهم.

وحاول بعض رجال الدّين الفرنسيين من جماعة الرّحمة والثالوت إصلاح الأمور وتحدّثوا في أمر إعادة أسرى المغاربة، ولكنّ قنصل فرنسا في "سلا" عاداهم، ولم يتحصّل من الأمر كلّه إلاّ استعادة عشرين أسيراً مغربياً في سنة 1712، وبعد رحيل الآباء الفرنسيين ازداد الأمر سوءاً لأنّ موضوع التجارة مع المغرب انتقل إلى أيدي المهاجرين الفرنسيين الزنادقة المعروفين باسم "الهوجونوه" وكانوا مقيمين في فرنسا، وكانت للإنجليز

---

[1] تاريخ المغرب وحضارته، ص 275.

والهولنديين امتيازات على حساب فرنسا، وواحد من هؤلاء الزنادقة اعتنق الإسلام وأصبح عاملاً على "سلا"، وبهذا لم يعد أيّ سبيل للتفاوض بين فرنسا والمغرب، وانتهز الإنجليز الفرصة ووضعوا أيديهم على تجارة المغرب مع أوربا.

وهكذا كان موقف "لويس XIV" وسياسته حِيال المغرب سبباً في ضياع كلّ شيء، وفي ذلك قال المؤرّخ الفرنسي "هاردي Hardi" : "لقد أظهر لويس XIVبُعداً عن الذّكاء بلا حدود، فبدا منه من الجهل بأمور المغرب وأهله وسوء التصرّف في صغار المسائل ما يستوقف النظر، ومولاي إسماعيل يتفوّق عليه هنا تفوقاً عظيماً ومرد ذلك هو فطنة والي المغرب ودرايته بأحوال الأوربيين ودهائهم"[1]

أما عن أثر الاستعمار في بلد الجزائر، فقد كانت هذه الأخيرة من أقوى الدّول المغاربية في تحمّل أعباء القرصنة والهجومات والغارات من طرف الدّول الأوربية المسيحية، وهذا بفضل تواجد الأتراك ومجيئهم لهدف حماية الإسلام والمسلمين من المسيحيين الذين كانوا يُلاحقون المسلمين الفارين من بطشهم حتى مدن المغرب العربي الساحلية، وكان هذا التعامل هو الدّافع القوي للجزائر لكي تحمي المسلمين وتصدّ غارات المسيحيين البحرية عليها وتحمي تجارة المسلمين في حوض البحر المتوسط.

وهدف الجزائريين لم يكن القيام بالقرصنة وإنما الجهاد والدّفاع عن وطنهم وعن بلدٍ هم أسياده. كما أنّ العمليات الحربية كانت موجّهة ضدّ أساطيل الدّول التي تعتدي

(1) تاريخ المغرب وحضارته، ص277.

عليهم وتستولي على بواخرهم، ولم تكن الغاية من الهجومات على السّفن الأجنبية هي الحصول على الغنائم فقط.

وباختصار فإنّ قوّة الدّولة الجزائرية في العهد التركي كانت مستمدّة من وجود جيش بحري بلغت قوّته في عهد "الرايس حميدو" ما يقرب 500 قطعة بحرية يعمل على متنها ما بين 30000 و40000 بحّار، وبفضل هذا الأسطول تمكّنت الجزائر من :

1) حماية المسلمين المغاربة من اعتداءات القراصنة المسيحيين.

2) التصدّي للغارات البحرية التي كان يشنّها الأوربيون على مدن المغرب العربي وسفن المسلمين التجارية.

3) القيام بعمليات تحريرية لطرد الغزاة الإسبان من مدن المغرب العربي التي تمكّنوا من النزول بها مثلا : جيجل، عنابة، بجاية، وهران، تونس ومراكش.

4) الاشتراك مع القوّات البحرية العثمانية لصدّ غزوات التحالفات الأوربية الصليبية ضدّ الجيوش الإسلامية.

5) حماية التجارة الوطنية وإغناء الخزينة بعائدات مالية جاءت من الغنائم الحربية".[1]

وبالرّغم من وجود الاستعمار بدول المغرب العربي عاد بالنتائج الإيجابية كتلاحم الشّعوب في مقاومة الغزاة، والدّفاع عن القومية والدّين الإسلامي إلاّ أنه عاد بسلبيات

[1] التاريخ السياسي للجزائر، ص 76.

أثّرت الأثر البليغ في إحداث الضعف الذي عرفته الدّول المغاربية؛ ففي الجزائر كانت هناك أسباب أضعفت النظام السّياسي والاقتصادي.

والكثير من المشاكل كان لها ارتباط بالقيادة في تركيا حيث إنّ التعاون بينهما في البداية وخاصة عندما كانت تُركيا في أوج عظمتها وعزّتها، قد عزّز مكانة الجيش البحري في الجزائر الذي كان يحصل على غنائم ويفرض رسوماً مالية على الدّول التي تمرّ بواخرها عبر السّواحل الجزائرية.

زيادة على أنّ ضعف تركيا أثّر سلباً على سياسة الحكّام الجزائريين حيث وجدوا أنفسهم في ضعف عن مواجهة الأوربيين التي تحالفت فيما بينها ضدّ الجزائر.

وممّا يجب الإشارة إليه بالنسبة لتدهور الأوضاع السياسية والاقتصادية بالجزائر في مطلع القرن 19 هي أنّ التحالف بين الدّول الأوربية ضدّ الجزائر وإجبارها على عدم مواجهة السّفن الحربية والتّجارية للدّول الأوربية التي تمرّ بالبحر الأبيض المتوسط، قد أثّر سلبياً في الوضع المالي والسياسي للجزائر. فبالرّغم من التبريرات التي قدّمها الدّاي حسين إلى الدّول الكبرى التي قرّرت في مؤتمر "فيينا" ومؤتمر "إكس لاشابيل" سنة 1818 أن تعتبر أنّ كلّ نيل أو مساس بتجارة إحدى الدّول الأوربية ينتج عنه ردّ فعل سريع من طرف الدّول الأوربية المتحالفة، فإنّ بريطانيا لم تقتنع بتبريرات الدّاي وقامت بمحاصرة ميناء الجزائر والهجوم على البواخر الرّاسية فيه وذلك يوم 12 جويلية 1824، وقد حاول الدّاي حسين أن يُقنع الدّول الكبرى بأنّ الجزائر لا تستطيع أن تتخلى عن حقها في

التعرّف على البواخر الأجنبية لأنّ هذه الوسيلة الوحيدة للتعرّف على البواخر العدوّة من الصّديقة.

لكنّ بريطانيا وروسيا والنمسا وهولندا كانت مصمّمة على تجريد حكومة الجزائر من الدّخل المالي الأساسي لخزينتها، وبذلك يصعب عليها دفع مرتّبات جنودها ممّا يجعلها تفقد ولاءهم وإخلاصهم لها، وهذا ما حصل بالفعل حيث أنّ قلّة المدخول من الغنائم جعل خزينة الدّاي شبه فارغة، كما أنه تجدر الإشارة بالتركيز على أسباب تدهور الأوضاع العامة في الجزائر مع مطلع القرن 19 هي «أنّ سوء تصرّفات الدّاي مع قناصل الدّول الأوربية في الجزائر وتلهفه على المال ومعاناة خزينة الدّولة من غلاء المواد المجهّزة المستوردة وبخس أثمان المواد الأولية المصدّرة قد نتج عنها انهيار الأسطول البحري وتعدّد الانتفاضات الشعبية والاغتيالات.»[1]

ونستخلص ممّا تقدّم أنّ ضآلة الموارد الخارجية للدّول الجزائرية مثل : الرّسوم الجمركية على الواردات، الغنائم التي كان يحصل عليها الرّياس من الغزو، الفدية التي كانت تُدفع لتحرير الأسرى والعبيد، الهدايا التي كانت تُقدّم للدّاي عند تعيين القناصل بالجزائر، الجزية المفروضة على الدّول الأوربية مقابل عدم التعرّض لسفنها، هي التي جعلت حكومة الدّاي تعيش في ضائقة مالية حادّة، ونتيجة لاضمحلال المدخول المالي للدّولة أبدى الدّاي وحكومته اهتماماً خاصاً بالشؤون الدّاخلية للبلاد وصمّموا على تعويض المداخيل مثل الزكاة، الخراج، العشور، وهي ضريبة استثنائية تُدفع كمساهمة من

(1) التاريخ السياسي للجزائر، ص79.

المواطنين في نفقات الجيش والدّفاع عن الوطن بمداخيل محلية يتحمّل أعباءها سكّان الجزائر.

وكانت النتيجة الحتمية لزيادة الضرائب هي تزايد السّخط الشعبي على حكم الدّاي، وتهرّب السّكان من دفع الضرائب جملة واحدة وقيام ثورات شعبية في عدّة نواحي بالبلاد، وهذا ما يُفسّر الانهيار السّريع للنظام التركي بالجزائر.

وهكذا كان أثر الاستعمار على دول المغرب العربي عامة وعلى الجزائر خاصة، وهي النموذج الخاص في هذا البحث، حيث كانت له سلبيات أكثر من إيجابيات؛ ممّا أدّى إلى تغيّر أنظمة الحكم ببلدان المغرب العربي، وخروج الشعوب من دوّامة الرّكود إلى الفطنة والمقاومة في إخراج الاستعمار من بلادٍ هم أسيادها.

إضافة إلى كل هذا استفاد المغاربة حكاما وشعوبا من تجاربهم في معاملاتهم مع الأوربيين واكتسبوا خبرة ودراية في تسيير الشؤون المرتبطة بهم ومكنتهم من تكوين صورة حقيقية عن الرجل الأوربي كيفما كان رجل دين أو سياسة أو تجارة أو حرب، ولعل الموروث التاريخي والأدبي والفني ومختلف المراسلات والخطب وغيرها دليل على ذلك.

الفصل الرابع

عرض وتحليل بعض النماذج من الصور من خلال الوثائق

لقد تطرقنا في الفصول السابقة وبإسهاب إلى الحياة العامة السائدة في المغرب العربي في المجالات السياسية و الاقتصادية والثقافية والاجتماعية ، بل عمدنا إلى إظهار نوع العلاقات التي كانت تربطه و الضفة الشمالية (الغرب)، كما تطرقنا للقطر الجزائري نموذجا بعد الاحتلال وما انجر عنه من تشريد وسلب لحقوق الفرد الجزائري وكبت لطموحاته وتطلعاته فكل هذه التفاعلات والحركية لا بد أن تترك انطباعا خاصا للمغاربة، و الذي لا محال سوف يترجم للواقع في مخلفاتهم الثقافية المتنوعة من رسائل، شعر وأمثال وهذا ما نود التطرق له بالدراسة في هذا الفصل.

1-عند الأدباء :

أصيبت الثقافة العربية خلال فترة الحكم التركي بالوطن العربي عامة بضعف كبير وبالشمال الإفريقي خاصة، كون الحكام و النخبة البارزة تشكلت من عنصر أجنبي عن الثقافة العربية، بل حلت محلها اللغة التركية ولم يجتهد الأتراك للنهوض باللغة العربية؛ إذ كان العنصر التركي ميالا للحروب أكثر منه للعلم والمعرفة، وأصبحت اللغة العربية ثانوية هزيلة بعيدة عن تلك التي عرفها المجتمع المغاربي فيما قبل (الدولة الحمادية).

امتزجت بخليط من الكلمات التركية وأخرى عربية ولهجات محلية، ورغم هذا الضعف والتقهقر الذي عرفته اللغة إلا أنها ظلت أداة ووسيلة بيد مجموعة ضئيلة من

الشعراء محدودي المستوى[1] ترجموا بواسطتها كل ما جادت به قرائحهم بما اطلعوا عليه من آداب ومؤلفات ومدونات أوربية[2] نتيجة الاحتكاك بالتجار والشعراء والأدباء الغربيين.

ومن أمثلة ما ورد من أشعار تصف الحروب والثورات التي قام بها المغاربة ضد الغزاة الأوربيين نذكر هذه الأبيات:

هنيئا لك البشرى نصرت على العـــدا و دمرت جيش الكفرة بالقتل والخسف

وحزت مقاما دونه كل باســــــــــــل يرى الحرب ميدان الخلاعة و القصف

بجيش عظيم قد تفرد في الوغــــــــى له سطوة عزت و جلت عن الوصـــف

هذه الأبيات الشعرية للمجاهد و الشاعر "أبو طالب علي"* نظمها إثر انتصار الأمير عبد القادر وجيوشه، وقد كان الشاعر مشاركا في المعركة ضد الجيوش الفرنسية والمعروفة بمعركة المقطع سنة 1835م، يهنئه فيها بالانتصار الكبير على العدو الذي يصفه بجيش الكفار، مظهرا بسالة وقوة و خبرة المجاهدين في ميدان الحرب، إلى أن يقول :

نهار بدا كالليل أظلم حالـــــكا أصبنا لهم ألف قتيل مع النصف

قبلنا لهم دهر المجي عشيـــــــة فمالوا إلى حب الحياة على الحتف

و بدد شمل المشركـــين بنصـــره أزالت غياهيب الضلالة باللطف

[1] دراسات في الأدب الشعبي، ص97.

[2] تاريخ الآداب العزبية، ص 55.

* أبو طالب علي : عم الأمير، و رفيقه في المقاومة

و بهذه الأبيات يصور لنا الشاعر مدى عظمة تلك المعركة التي دامت يومين كاملين، وفي اليوم الثالث أدبرت جيوش العدو هاربة إلى ثكناتها بوهران تاركة وراءها الخسائر الجسيمة من الجند المقدرة بألفي جندي، وهناك من يذكر ما يفوق أربعة آلاف ميت إضافة إلى الخسائر المادية من معدات حربية، وذخائر ومؤن، ومنذ ذلك الحين أصبح الأمير يحمل لقب محرر الإسلام تكريما له على الانتصار العظيم الذي حققه في معركة المقطع. وفي الأبيات إشارة إلى صمود و بسالة الأمير وجيوشه في وجه الجيوش الفرنسية بوازع الدين و الملة.

ورغم الخلاف الكبير الذي كان يسود علاقة الأمير بالسلطان المغربي، إلا أننا نجد في بلاطه من سانده وأيده ولو بلسانه، مثل أحد وزرائه وهو محمد بن إدريس العمراوي يهنئ فيها الأمير على فتحه و استرجاعه تلمسان من الجيوش الفرنسية، يقول في بعض أبياتها:

"بشرى بفتح كسا الإسلام إحسانا ... وصار منه لعين الدين إنسانا
صنع جميل سمت فضلها صنائعه ... بها جهارا كأن الكفر ما كانا
فأصبحت وجون السعد مشرقة ... بها جهارا كأن الكفر ما كانا
قد شاد أركان دين الله فاتحه ... وهذا من خبات الكفر أركانا
و كيف لا وبه ازداد العلا وسما ... وطهر الله مولانا تلمسانا
وقد ملة الإسلام عالية ... ونكست بحمى الإشراك صلبانا

فتح تفتح أبواب السماء لـــــه — إذا تلاه لسان أحيانـــــــــا

وهش بالبشرى سكان السماء له — مد سر من مؤمني الغبراء سكانا

لازال يستخلص الأقطار منتصرا — ثغرا فثغرا و أوطانا فأوطانــــا[1]

من خلال هذه الأبيات التي تعد تضامنا من الأشقاء المغاربة للأمير ضد الغازي والعدو المشرك فرنسا، استبشر الوزير خيرا بالأمير بعد ما فتح الله عليه وعلى مدينة تلمسان بتطهيرها من دنس الكفر والكفار[2] ومتمنيا له انتصارات أخرى في كل من وهران والجزائر اللتين ظلتا تحت وطأة الاستعمار لفترة من الزمن، حيث ورد عن الأمير مقولة يأمل فيها تحريرهما من قبضة المستعمر:

"... نسأل الله سبحانه أن يتم مسرة المسلمين بفتح وهران والجزائر، وينشر الإسلام فيما بينهما من الثغور و العمائر و يثبت أركان الإسلام في مركزها ويعيد دولة الدين إلى حوزتها ، بمنه وفضله، وقوته و حوله، إنه على ما يشاء قدير، بالإجابة جدير والسلام..."

كما يظهر كره الشاعر الوزير، وعداؤه للفرنسيين أعداء المسلمين، الذين سماهم بالكفرة والمشركين، حيث حمد الله الماحي بنور التوحيد ظلام الإشراك وموقع الكفر فيما نصبوه للمسلمين من المكائد.

(1) أبيات وردت في رسالة تهنئة من الوزير "محمد بن إدريس العمراوي " المغرب الأقصى إلى الأمير عبد القادر إثر فتحه لتلمسان من كتاب تاريخ الجزائر العام الجزء الرابع صفحة 125.

(2) الشعر الديني الجزائري الحديث، ص74.

وتظهر فطنة وحنكة هذا الوزير السياسية الذي يدرك ذلك الصراع الغربي وسياسته التوسعية الخارجية، الأمر الذي دفعه لنظم قصيدة حماسية طويلة يستنهض بها قومه بالمغرب الأقصى حاثا إياهم على مساندة الجزائر في جهادها ضد الكفرة قائلا:

يا سكني الغرب الجهاد الجهاد	فالكفر قد شارككم في البلاد
والشرك قد نصب إشراكـــــه	مستعبدا بكيده للعبـــــــاد
يا حماة الدين ما صبركـــــم	والمشركون يطلبون البـــلاد
ما هذه الغفلة عن ضدكـــم	وأنتم في الحرب أسد جـــــلاد
إن بني الأصفار أعداءكـــم	أطمعهم نومكم في الســــواد
ويا أباة الضيم هل نهضـــة	تسربل الكفر ثياب الـــحـــداد
قوموا لنصر دينكم قومـــة	تحطم أهل الشرك حطم الجراد

ففي هذه الأبيات يستنهض الوزير الشاعر قومه ويحثهم على الجهاد في سبيل الإسلام والمسلمين ويؤكد لهم أن العدو عدو واحد.

1/1-في أدب الرسائل:

نذكر في هذا الباب بعض المراسلات التي كتبت ما بين القرنين 18 و19، والتي يمكن من خلالها استخلاص الصورة الحقيقية الراسخة في أذهان المغاربة ومن خلالها تتم البرمجة لكل المعاملات والمبادلات.

فبعد ما رأينا أن القرصنة عملية ألصقها المؤرخون الغربيون بالبحارة المغاربة وبالأخص الجزائريين، بقصد تشويه سمعتهم وتجنيد الرأي العام الغربي ضدهم،

نستعرض وثيقة تاريخية وهي رسالة نقف من خلالها على حقيقة ذلك النشاط المشار له بالقرصنة، والتي تثبت بأنه كان نشاطا متبادلا بين بحاري الضفتين، نعني المغاربة والأوربيين، نصها كالتالي:

"إلى السيد مولاي سليمان سلطان الغرب نصره الله و نصر عساكره آمين،

واليوم يا سلطان الرحم، الله ينصرك ويزيد في أيامك من جابون ّإلى مالطا... أبقيت فيها أربعين يوم بعد ذلك كيف كلمت الربعين يوم اداوني عند السلطان إلى عند السلطان انتاع مالطا وقال لي أنت منين يا وليه ؟ وقلت له : يا سلطان أنا من المغرب، بنت من انتي ؟ و قلت له : أنا بنت السلطان مولاي إدريس ما ننكر شي أصلي وقريبت مولى محمد. واليوم أنا من إن نجيش في يدك ما جيتش بغرض أعمل كيف ما تحب فيا جيت بالسيف عليا و بعد ذلك قلت لو يا سلطان أنا جابني الله في يدك تبقا أنت تحكم عليا من غيرك".

هذا مقطع من رسالة استغاثة لأسيرة مغربية بمالطا و جهتها إلى سلطان المغرب، والتي يتضح من خلالها أن عملية القرصنة عملية متبادلة بين رجال البحر المغاربة و الغربيين على حد سواء، ويتضح أيضا إدراكها لانتمائها و لكونها أسيرة، وفي الرسالة إشارة إلى انتمائها، الذي تشير إليه بعبارة المغرب، بكل ما تحمله الكلمة من معاني الانتماء، كما نلمس رغبة الأسيرة في محاكمتها من لدن سلطان مالطا دون غيره، وذلك

يعكس مدى تعنت وقساوة قرصنة المالطيين، عساها أن تلفت شفاعة السلطان بانتسابها لسلطان المغرب وتابعت الأسيرة رسالتها بما يلي :

"وبعد ذلك سمع الجيران العيطان انتاعي وبعث ل أجا وشد الخادم و أعطها العمر، وجاب المصلح و طللها بالحبس جاش، وبعد ذلك قالت لو الخادم أنا مانديش يا عدو الله النحس لما له و نشد الروم المكنس حاش وجه سيد بالنحس و طالمالي على وجه و قالي : أعلي تقول أنا منيش سيد ، لو ياعدو الله أنا سيد مولى سليمان الغالي.

و ينصر عساكر يا عدو الله."

ومن خصال هذا المختصر والعبارات المصرح بها تتضح لنا جليا صورة المالطيين الذين قاموا بعملية الأسر في حق الأسيرة المغربية في عبارة 'يا عدو الله النحس' هذه العبارة التي تتضمن عداوة المالطيين للمغاربة المسلمين ومخالفة ملتهم، كما تتضمن النصر لعساكر السلطان المغربي وللمسلمين جميعا، إضافة إلى ذلك وردت كلمة الروح ضمن ما كتبته الأسيرة في رسالتها وهذا ما يرسخ عبارة 'بر الروم' والتي كانت سائدة في تلك الفترة من الزمن.

و عن الجمعية الخيرية الإسلامية في رسالتها إلى الصدر الأعظم محمود نديم باشا جاء فيها ما يلي:

"حدا لمن جعل كلمة الذين كفروا السفلى و كلمة الله هي العليا، وأنعم على المسلمين بتولية الوزارة لناصر الشريعة والدين، وجرد من الملة الإسلامية سيفا عثمانيا أذل به كل كافر في الدنيا، و الصلاة والسلام على من جاهد في إعطاء كلمة الله حق جهاده"

ففي هذه المقدمة استهل أعضاء الجمعية الخيرية رسالتهم بالثناء والشكر لله عز وجل الذي جعل كلمة الإسلام والمسلمين العليا إشارة إلى المجاهدين المغاربة (الجزائريين) و كلمة الكفر والكافرين هي السفلى نسبة إلى الأوربيين الغزاة (الفرنسيين) وتوصلت الجمعية إلى أن أصل محاربتهم وعصيانهم للأعداء (الفرنسيين) كان بإيعاز ورغبة من الباب العالي الذي وعدهم بتقديم المعونة والمتمثلة في الأسلحة والنقود، إلا أنهم لاحظوا التأخر في وصول هذه المساعدات، ويزيد أعضاء الجمعية استفاضة في الموضوع بالتوسل إلى الصدر الأعظم بالتعجيل بنجدة المسلمين في الجزائر بناء على ما تفرضه صورة الاستعمار والغزو الصليبي عليهم من تدابير وتحركات على كامل الجبهات، ويردفون قائلين:

"أن تنظروا إلينا بعين الرحمة و الشفقة و الغيرة الإسلامية ، بعرض حالنا حضرة مولنا السلطان العظيم المعظم ، لعل و عسى أن يرحمنا ويفك أسرنا ويمسح دموع صغارنا وكبارنا بإنقاذنا من تحت يد ظلم أعدائنا الكافرين... مع أننا نبلغ الخمسة ملايين، وكلمتنا كلمة واحدة و إيماننا، لله الحمد ثابت وخسارتنا في الحروب، سارت بها الركبان، ولو كان عندنا مدافع وأسلحة ونقود وغير ذلك مما يلزم الحروب ما كنا نطلب (كذا) الإعانة من

الدولة العلية وكنا بعد إزالة الكفرة من إقليمنا أعداء ديننا، نسلمه لها لأننا من ضمن رعاياها سابقا و لاحقا".

فمن خلال هذا النص نستشف توظيف الجمعية الحمية والغيرة الإسلامية لكسب عطف السلطان العثماني لنصرتهم لما هم بحاجة إليه من المؤونة والنقود والأسلحة.

كما صور لنا ضعف الجزائريين أمام قوة وظلم الأعداء الكافرين كما يظهر ولاء الجزائريين للخلافة العثمانية، كون السلطان العثماني في نظرهم حامي الملة والدين، والذي من المفروض عليه حماية و مد يد العون للرعية المسلمة في أي مكان يشعر بخطر الكفرة. وعلى العموم، وإلى هذا الوقت المتأخر من تاريخ المقاومة الجزائرية لازالت الرعية تعتبر كل من هو من الضفة الشمالية للبحر الأبيض المتوسط كافرا يجب محاربته وفي هذا إشارة صريحة إلى صورة الرجل الغربي في ذلك العهد.

وفي رسالة ثانية أعربت الجمعية للسلطان العثماني عن حاجتها إلى الدعم لمحاربة الأعداء مطالبة إياه بالإمداد السريع على طريق تونس وطرابلس الغرب، وهذا ما يفسر تضامن الشعوب والقبائل المغاربية ضد الكفرة وأعداء الدين على حد تعبيرهم.

ولتتبع مصادر صورة الغرب عند الساسة المغاربة نعمد إلى الاستشهاد برسالة حمدان خوجة إلى السلطان العثماني وذلك باختصار وجيز جاء في نصها :

"فبعد تقديم مظاهر الإكرام اللائقة لجلالتكم، نعلمكم أنه إثر المصائب التي حلت بالبلاد فإن الناس قد تفرقوا شذر مذر ، وهجروا عائلاتهم، وإن الكفار ألحقوا بهم ضيقا

وجورا، إن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم قال : « الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء »، أنكم على علم بتاريخنا و بما حدث لنا عندما تفرق شمل الانكشاريين ووقعوا تحت عبودية الفرنسيين، لم تدعون العدو يعاقب أبناءكم – وعلى لسان الرعية الجزائرية – يقول إن سلطاننا قد تركنا في أيدي الكفار وكان يجب حسب ديننا أن يأتي لمساعدتنا"

فبعد إعطاء حمدان خوجة إلى السلطان صورة لما لحق الإيالة إثر الغزو الاستعماري الذي تسبب في تشتيت الانكشارية وانتشار الظلم والجور وكل أنواع التعسف المسلطة على الأهالي، ثم تطرق إلى تحميل السلطات المسؤولية ما يجري للرعية، وذلك لتماطلها عن تقديم الدعم مستعينا في ذلك بالحديث النبوي الشريف.

وكان بعض المؤرخين يرون أن الجزائريين ظلوا في غفلة وجهل بما يجري في الضفة الشمالية للبحر الأبيض المتوسط، ولا يعون ما وصلت إليه من تقدم، فإن حمدان من خلال رسائله يوحي لنا أنه كان على اطلاع بذلك، ففي وصفه لأفراد الجيوش يقول:

"وكلهم أرذل ولا يمكن أن يكونوا إلا كذلك إذ لا يترك بلاده ورفاهيته ويستوطن في بلاد حربية كالجزائر في يومنا هذا، إلا الأرذال و أقل الناس، وقد رأيتهم وهم يعيشون بين أبناء جنسهم في فرنسة."[1]

وسفر حمدان إلى فرنسا سمح له بالاطلاع على تقدم هذه الأخيرة مقارنة مع الجزائر بعد الخراب الذي حل بها من أفراد الجيش الفرنسي. الذين نعتهم بالأرذلين

(1) تاريخ الجزائر العام، ص 119.

والسفلة وغير المرغوب فيهم في وطنهم الأصلي، بل يتطرق إلى الأكاذيب والخرافات التي جرتهم بها الحكومة الفرنسية إلى الجزائر مدعية أن هذا الوطن ينبت القهوة و الفلفل وأنه أغنى من أرض الهند وأغلى، وكان لحمدان كره وعداء شديدان لمن تعاطف مع العدو ومهما كان السبب في ذلك فيعتبر هذا ردة و كفرا، ولو بقي النصارى العيسويون وحدهم ولم يعنهم النصارى المحمديون لأمكن الانتصار عليهم، وأهل الجزائر في غاية الحزن لتوهم خروج الجزائر من بعد الفرنسيين وعودتها للترك الظالمين الذين أحرقونا وأكلوا لحومنا و أموالنا على حد تعبير أحد الخونة.

هذا المقطع إن دل على شيء، إنما يدل على وجود فئة من المغاربة الذين تعاطفوا وانساقوا للمستعمر، وإذا وجد خونة من أمثال من ذكرهم حمدان كبوضربة في الجزائر فإن على شاكلته آخرون في كل باقي الأقطار المغاربية تونس والمغرب؛ فبوضربة فضل الحكم الفرنسي على الحكم التركي الذي وصفه بالظالم والجائر وهذا دليل وإشارة على فساد الحكم التركي في آخر مراحله، حيث اعتمد على جمع الضرائب القاسية من الأهالي، ويصف بوضربة علاقته بحمدان لرئيس الشرطة الجزائري قائلا: "إن علاقتي مع حمدان كانت تتسم بالبرودة والغفوة، وأن سوء تفاهمنا الذي وصل إلى درجة الكراهية، يرجع إلى اختلاف وجهات نظرنا السياسية، فبينما كان هو يريد رجوع الأتراك إلى الجزائر، كنت أنا قد وهبت نفسي و روحي للفرنسيين".

فمن خلال هذا التصريح تتجلى لنا خيانة وردة بوضربة على حساب الوطنية وانتماء المغرب العربي بمحيطه الإسلامي، إذ كان يقترب كثيرا بكل ما يمت للاستعمار الغربي من صلة، ويأتي وصف حمدان في إحدى رسائله لبوضربة بأنه متزوج بفرنساوية كما كان يعرف اللسان الفرنساوي أي يتقن اللغة الفرنسية، كما كانت له علاقة حميمة مع الوزير الفرنسي؛ وكان يمشي كل يوم لدار الوزير، وكان يرى أنه من الواجب إقناع وإخضاع الرعية المسلمة للاستعمار كما كان يقدم اقتراحاته للفرنسيين في كيفية الحكم قائلا لهم: "إذا تحبوا أن تنقاد لكم الرعايا فاجعلوا الأمير فرنسيا"، حسب تعبير حمدان.

وفي كل ما سبق يظهر تشتت وحدة الصف المغاربي عامة والجزائري خاصة في أواخر الحكم التركي بالجزائر في مواجهة التحرشات الأوربية.

فقد يظهر من خلال هذه الأوصاف جرأة الخونة في تسليم أرض المغرب العربي للقوى المسيحية والاستهتار بالمقومات الثابتة لشعوبها، وهذه صورة أخرى عن معايشة المغاربة عامة للظروف والأحداث التي عاشتها الدول المغاربية، كما تظهر أصالة حمدان واضحة من خلال رسائله، والمناداة بمبدأ 'الجزائر للجزائريين' في مضمون هذه الرسائل، وإن عرف هذا المبدأ التحرري بعد ذلك بكثير، ولشدة كرهه للاستعمار غادر حمدان خوجة باريس متجها إلى إسطمبول سنة 1836 واستقر بها إلى أن وافته المنية.

و من خلال رسائل حمدان أيضا يمكن استنتاج صورة الغرب عامة المتمثلة في الإستعمار التي رسخت لدى الجالية المغاربية بفرنسا آنذاك، فحمدان رغم أنه كان يعيش

بباريس في أغلب الأوقات إلا أنه دافع بلسانه و قلمه عن وطنه و انتمائه المغاربي العربي الإسلامي، وظل يناشد السلطان العثماني في التدخل بصفته خليفة المسلمين لإعانة أبناء دينه على التحرر.

و نفرد له هنا مقاطع من اعترافاته بمواقفه حيث يقول:

"أنا قد جاهدت بقلمي، فجاهدوا بألسنتكم ...الفرنسي لا يخرج من الجزائر إلا بالقوة ومواعيده لا أصل لها...كل يوم يزداد...أنا كتبت و بينت و أنتم يحرم عليكم السكوت"، و لم يقف حمدان عند مناشدته لتدخل السلطان بل وجه ملامة عن كيفية تقديم السلطان العون والدعم، ولتخاذل حكومات تونس وطرابلس الغرب وتهاونها على استرجاع الجزائر أحد ثغور الإسلام وجزء من الخلافة الإسلامية التي هي بيد العثمانيون، وتواجه خطر سقوطها في يد الكفار، وكان يخاطر بنفسه و بعائلته من خلال جهاده المتواصل بالقلم الذي لم يعرف الانقطاع وذلك بدافع الغيرة الإسلامية، كما عبر عن غيرته على أبناء جلدته من المسلمين وتمنى أن يعود إلى الجزائر. هذا من جهة ومن جهة أخرى إذا حاولنا الوقوف على بعض رسائل الأمير عبد القادر مع مختلف الجهات التي كان يراسلها، وباعتباره مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة فإننا نجد أنه كان مدافعا بسيفه عن الجزائر و الجزائريين والمسلمين عامة، وكان دفاعه عنهم أيضا بقلمه وفكره، ففي الداخل كان يسير وينظم ويراقب أمور وشؤون دولته، وينشر الوعي وقيمة الجهاد في سبيل الوطن وأرض الإسلام، ويدعوا لإخرج الظالمين والبغاة وتحرير البلاد من دنس الكفار،

وفي الخارج حاول جلب الأنصار والأصدقاء وتكوين حلفاء له، بل تعامل حتى مع الأعداء حسب ما اقتضته الظروف.

فالأمير عبد القادر راسل السلطان العثماني "عبد الحميد" ليعرض عليه حال المسلمين وبلاد الجزائر مما يقاسونه في تلك الظروف الصعبة من السنوات الأولى للاحتلال من العدو، ومن بين تلك الأوصاف قوله في إحدى رسائله إليه قوله: «لما خرجوا (الإنكشارية) عن طاعة أمير المؤمنين والدك المرحوم، عاقبهم الله بسوء فعلهم وسلط عليهم من لا يرحمهم العدو الكافر والغشوم فبدد شملهم، وملك القرى و المداين واستولى على الأموال و الذخائر والخزائن وسمت به همته، أخزاه الله، إلى ملك جميع الإيالة واسترقاق المسلمين تارة بالمكائد والحيل و تارة بالقهر والاستطالة وحال الكافر والبحر بين المسلمين و بين سلطانهم»[1].

فمن خلال ما تقدم يوضح الأمير للسلطان مصير المسلمين بالجزائر الذين أصبحوا عرضة للنهب و التنكيل والمعاناة من طرف الكفار، الذين سلطهم الله على جند الإنكشارية الذين خرجوا عن طاعة السلطان بهذه الولاية، وزادت معاناة المسلمين بهذا الثغر البعيد عن مركز الخلافة والذي يحول بينهما كل من العدو الكافر والبحر، كما يضيف الأمير في رسالته أن المسلمين بهذا البلد الإسلامي كلهم في انتظار النجدة والإغاثة من السلطان الذي بقي دائما في نظرهم سلطانهم مادامت الخلافة قائمة، وأنهم في حيرة من أنفسهم لقلة عدتهم البحرية مقارنة مع العدو، فإنهم استنجدوا بالسلطان عبد الرحمن سلطان مراكش

[1] تاريخ الجزائر العام، ص 136.

بحكم الملة والدين والذي استجاب في البداية لبعث ابن عمه على رأس جيش عظيم، إلا أنه رجع منقلبا من حيث أتى تحت ضغط السلطات الاستعمارية.

ومن الرسائل الجزائرية التي وجهت للقادة والعساكر الفرنسية بعدما طلبت هذه الأخيرة من سكان قسنطينة الاستسلام تلك الرسالة التي بعث بها الحاج أحمد باي حاكم قسنطينة وقائده العام علي بن عيسى على لسان سكان المدينة ومن بين ما جاء فيها :

«من الأمة المحافظة على شرفها و بلدها إلى العسكر الفرنسي المعتدي على حقوق غيره، قد و صلتنا رسالتكم وفهمنا ما ذكرتموه فيها. نعم إن مركزنا أمسى في خطر عظيم ولكن استيلاؤكم على قسنطينة المحمية بالأبطال العربية الذين لا يهابون الموت موقوف على قتل أخر واحد منهم، واعلموا أن الموت عندنا تحت أسوار بلدتنا أحسن من حياتنا تحت سلطة فرنسا»[1].

تعد هذه الرسالة تحد وتعبير عن رؤية سكان هذه المدينة التاريخية للاستعمار حيث فضلوا الموت مقاومين على الحياة تحت سلطة فرنسا وهم كلهم إدراك ووعي بما يعنيه العيش تحت راية العدو، ولم تكن هذه الرسالة الوحيدة في هذا الشأن أو الفريدة في هذا التوجه التحرري. فهاهم الأحرار المجاهدون من مدينة مليانة يجيبون على رسالة "الماريشال فالي" التي دعاهم فيها للاستسلام و الانقياد للدولة الاستعمارية نصها ما يلي:

« من عباد الله القادر المؤمنين به و برسوله مبيد الكفرة بسيفه الباتر الذين يحاربون أعداء الله لإعلاء و تعظيم اسمه القاهر آمين :

(1) تحفة الزائر ج.1 . ص . 194

على حاكم مدينة الجزائر السلام على من اتبع الهدى ، أما بعد:

وصلنا كتابكم المتمثل على دعوتنا إلى طاعتكم و النداء إليها، فأخذ بنا العجب في كل طريق ومذهب، وكيف نترك ديننا الذي هو الدين القويم والصراط المستقيم ونتبع دينكم الذي يجب علينا فيه أن نقاتلكم حتى نردكم عنه إلى ديننا، ثم اعلموا أننا بحول الله وقوته لا نزال نحاربكم وندافع عن ديننا وأوطاننا إلى أن تقفوا على سوء عاقبة ما ارتكبتموه من عظم الذنب ، وأي ذنب أعظم من تعديكم على بلادنا أولا ثم سعيكم في تغيير ديننا»[1].

ومن خلال هذا الرد يتضح جليا للعيان الفرق في الانتماء العقائدي بين المتراسلين مواطني مليانة وما جاورها والمستعمر، هذا الفرق الذي كان له أثره في كل شيء نلتمسه في كيفية صياغة الرسائل بتوظيف عبارات تتضمن كذلك الأسماء مثل: القادر والمؤمنين به وبرسوله، مبيد الكفر، عباد الله ، أعداء الله، ديننا ودينكم. والذين يرون في طلب "المريشال فالي" أمرا يستحيل حتى التفكير فيه لأن الانقياد للدولة الكافرة والذوبان فيها يصبح ردة وكفرا، مما يفرض عليهم محاربتهم، بل إذا واصلنا قراءة الرسالة نجدهم يذكرون "المريشال فالي" ومن خلاله الحاكم العام والدولة الفرنساوية والعالم الغربي عموما أن الأديان السماوية كلها تأمر بالعدل و تنهى عن الظلم و التعدي على حقوق الغير، إشارة في ذلك إلى الإنجيل الذي أنزله الله على سيدنا عيسى عليه السلام والذي يدين به العالم الغربي، الذي ظل يتربص و يتحايل لفرض و جوده على الإقليم المغاربي

(1) تاريخ الجزائر العام ج 4 ، ص 174

وفي معنى ما ورد في ردهم هذا إن الغرب المسيحي عالم مادي بالدرجة الأولى لا يعير للإنسانية ولا للقيم الأخلاقية أدنى اهتمام وهذا مخالف لما أنزل على سيدنا عيسى.

ورؤية الفرد الجزائري (المغاربي) للاستعمار الفرنسي يمكن استخلاصها من خلال الحوار الذي جرى بين الثائر المجاهد والقائد أبو معزة* ورئيس المحكمة العسكرية، بعد انهزامه واستسلامه بتاريخ 13ماي 1847م، مع مراعاة وضعية القائد المحرجة نتيجة الظروف القاسية التي كان يستنطق بها.

2/1-في الخطب

تبقى الخطب التي شاعت في هذا العصر ترمز كثيرا إلى ما كان يعايشه المغاربة من أحداث وأوضاع شأنها في ذلك شأن باقي الألوان الأدبية والمراسلات السياسية، وتعتبر بنت مناسبتها ويمكنها أن تعطينا كثيرا من التفاصيل حول الصورة التي ارتسمت في أذهان المغاربة عن الغرب عامة وعن بعض الشعوب الغربية خاصة جراء تعايشها معهم بفعل الاستعمار أو القرصنة أو التجارة.

وفي خضم أحداث كثيرة يمكن الإشارة إلى بعضها وتقديمها كدليل لترجمة معالم تلك الصورة، ومنها خطبة الأمير على زعماء القبائل:

بعد أن عقد الجنرال بيجو معاهدة الصلح مع الأمير عبد القادر عمل هذا الأخير لاحترامها وأن يبقى مسالما و في نفس الوقت يعمل على تقوية جيوشه و تنظيمها من جديد استعدادا للحروب المقبلة، إلا أن الطرف الأخر عمد على استفزازه بدون توقف

* أبو معزة : هو محمد بن عبد الله ، من قبيلة أولاد حويدم بنواحي مدينة الأصنام وينسبه علال الفاسي إلى أولاد سيدي الطيب بضواحي مراكش بالمغرب الأقصى و كني بأبي معزة كونه كان لا يظهر أمام الناس إلا مصطحبا المعزة.

وبعد مراسلة الأمير له العديد من المرات لاحترام ما جاء في المعاهدة لم يتلق أي جواب فجمع الأمير مجلسه الذي حضره زعماء القبائل والعلماء للتشاور فيما بينهم و خطب على الجميع قائلا: «فلا بد أن يكونوا قد قصدوا باعتدائهم هذا أن يستولوا على بلادنا ويستعبدوا ... وأموالنا و أرواحنا فلا عدول عن حرب...النصر مطلوب من الله القادر الذي لا نقاتل إلا لإعلاء كلمته»[1].

وهذا شطر من خطبة حماسية جمعت الأمير بتكتل شعبي عظيم حضره كبار وأعيان القبائل والعلماء بالقرب من "مليانة"، فبعد أن شرح لهم فيه موقف الدولة أمام نوايا الاستعمار من كيد و غدر واندفاع للحرب، دعاهم إلى الحذر والاحتياط وأخذ الأهبة للحرب التي هي لا محالة واقعة، مع التبصر إلى ما يقوم به الساسة الفرنسيون في الأوساط الجزائرية من بث الفشل بين أفراد الشعب وزرع الشقاق والخلاف وبذر أسباب العداوة والبغضاء بين الناس، وحثهم على وجوب الجهاد من أجل إعلاء كلمة الحق وذلك بتقديم كل ما يملكون ويعزون من أموال وأرواح، ولشدة تأثيره في نفوس الحاضرين بخطبته تلك، تحمس القوم للجهاد رافعين أيديهم معلنين يمين الطاعة مجددين مبايعتهم له و هاهو مختطف من نص المبايعة :

[1] تاريخ الجزائر العام ج 4 ص 167

« بالله العظيم منزل القرآن على نبيه الكريم أننا لا نخون حضرة سيدنا و مولانا سيدنا عبد القادر بن محي الدين ..... و أننا لا نتأخر عن صفوف الجهاد بل كلنا يقاتل لآخر حياته وأننا نبذل أموالنا وأرواحنا لحماية ديننا ووطننا ابتغاء مرضاة الله ورسوله»[(1)]

وما يمكن ملاحظته فيما سبق هو تضمن الأشعار والرسائل والخطب لأحداث تاريخية ورموز أنثروبولوجية تستقى منها معلومات مهمة تساعد في فهم مستوى التفكير الاجتماعي وكيفية بنائه وفق الأحداث التي سرت آنذاك كما يتم شرح طبيعة وواقع العلاقات المختلفة بين الغرب والمغاربة، ويتم تبسيط كثير من المفاهيم وإرجاعها إلى أسبابها، ومن هذا كان المغاربة يستقطبون أفكارهم ويبرمجون معاملاتهم من الصورة التي تشبعوا بها أثناء تعاملهم مع الأوربيين، وكانت مرجعا لكل تحركاتهم ومعاملاتهم.

2-عند رجال الدين

لم يكن رجال الدين بعيدين عن الأوضاع والأحداث العامة التي عاشها المغاربة خلال القرنين 18 و19 م[2]؛ حيث ساهموا بقسط كبير في توعية الشعوب واستثارتها ضد الاستعمار والغزو الصليبي كما ساهمت في إثراء الفتن والحروب الداخلية وتزكيتها مما أدى إلى استمرارها لفترات طويلة[3]؛ وذلك خدمة لمذهب ديني أو اتجاه عقائدي، وتجلى ذلك في ظهور القائد الروحي أو الإمام والمرشد وكذلك انتشار الفرق الدينية المختلفة والطوائف والزوايا وغيرها، وهذا ما ساهم في تشتيت وحدة المغاربة أمام اتحاد القوى

(1) تاريخ الجزائر العام، ج4، ص168.

2 الأيديولوجية والحداثة عند رواد الفكر السلفي، ص122.

3 التعصب والصراع العرقي والديني واللغوي لماذا وكيف؟ ص81.

الصليبية، وكان نتيجة ذلك ضعف القدرة الاقتصادية والعسكرية للدويلات المغاربية وقصر حياتها بفعل الفتن والاضطرابات الداخلية، فكثيرا ما كان يجمع رجل الدين الناس حول فكرة معينة ويدعوهم لإعلائها والتمكين لها اعتقادا منه بأنها تخلصهم من أوضاعهم المزرية ومآسيهم وتبعيتهم لغيرهم، كما كانت لهم نظرة خاصة لرجال الحكم وللرجل الأوربي عامة استخلصوها من مجمل العلاقات التي ربطتهم بالأوربيين.

3- عند رجال الحكم :

تميز رجال الحكم دون غيرهم من الناس بفطنة وذكاء وحنكة في التعامل مع الأوربيين باختلاف مواقعهم ووظائفهم وذلك بحكم تجاربهم العديدة في شتى المجالات وبفضل ممارساتهم المتكررة، ونجد هذا جليا في مراسلات الأمير عبد القادر وخطبه الموجهة إلى حكام الدويلات العربية آنذاك وإلى رعيته، كما نلمس ذلك أيضا في رسائل وخطب أحمد باي حول الأوضاع التي كانت تعيشها قسنطينة خاصة وبلاد الجزائر عامة، وأيضا في مراسلات خير الدين وعروج للباب العالي وطلبهم المساعدة على دفع العدوان الصليبي على المغرب العربي.

خـــــــاتمـــــة

إن مجمل الدراسات التي أقيمت حول مختلف الأوضاع و الظروف التي عاشها المغاربة في حقب تاريخي مختلفة ، لم تراعي توضيح تأثير تلك الأوضاع وَ الظروف في تشكيل صورة عامة عند المغاربة عن الشعوب التي احتكت بها و تعاملت معها ، ولا شك أن تلك الصور تكونت بفعل مختلف التأثيرات التي خضع لها المغاربة في المجال السياسي والعسكري والاقتصادي والاجتماعي والديني والتجاري من قبل الغرب عامة بمختلف شعوبه وتكوينه الاجتماعي.

إن نظرة المغاربة إلى الغرب عامة والرجل الأوربي خاصة تحدده الفصول السابقة، تنبع من رؤية عامة كان ينظر من خلالها المغاربي إلى تلك الشعوب التي تجاوره وتقابله على ضفة المتوسط العربي ساهم في تكوينها تراكم أسباب تاريخية وعوامل مختلفة نتيجة الاحتكاك بين شعوب الضفتين .

ومن بين النتائج التي يمكن اعتمادها كأساس لأهم الصور التي رسخت في ذهن المغاربة عن الغرب يمكن الإشارة إلى :

- دور عامل الزمن في تكوين هذه الصورة ، حيث أدى تعاقب الاحتكاك بين الجنسين المغربي و الأوربي عبر مراحل تاريخية مختلفة إلى اكتساب خبرة و معرفة في التعاون وتنظيم العلاقات و تحديد و اتخاذ المواقف و برمجة مختلف التحركات و المعاملات.

- الموقع الجغرافي الذي يجعل من أسباب الاحتكاك والتعامل بين الشعبين يقوى ويستمر ولا ينقطع مهما كانت طبيعته واتجاهه.

- تأثير التحولات العامة التي عرفتها شعوب المنطقتين مثل قيام الإمبراطوريات وعوامل الاستقرار والازدهار التي تجعلها تتطلع لنقل حضارتها إلى الشعوب الأخرى أو التوسع على حسابها، وكذلك نأخذ مثالا عن التحولات التي عرفها المغاربة الأوربيون في المجال الديني وتغيير معالم الخريطة الدينية للقارة الأوربية ولشمال إفريقيا.

- طبيعة الأوضاع العسكرية و السياسية و الاقتصادية و التجارية التي ميزة مرحلة ما بين القرنين 18 و19 والتي كانت مدعاة للتغير والتحول في نظام العلاقات.

- المقومات التي يمتاز بها الجنسين اللغة، العرق، الدين، والتي كانت سببا كافيا لمحاولة تأثير كل طرف على الآخر وأدت إلى اصطدام قوي في كامل المجالات، مما أدى إلى تشكل صور متعددة لدى كل طرف.

- بنية مجتمعات الجنسين وتغيرها بفعل عوامل تأثير الطرف الآخر بفعل الغزو، الاستعمار، التبشير أو الفتوحات وبفعل انتقال الأموال والملكيات والأشخاص، وبفعل الهجرة وغيرها مما ساعد على تكوين تلك الصور.

أما عن طبيعة تلك الصور فمن أهم الاستنتاجات المتعلقة بتحديدها وضبطها نذكر أن الغرب عامة فيما بين القرنين 18-19 كان يشكل نقطة خطر ومصدر قلق المغاربة بفعل الظروف التي كان يعيشها الجنسين.

أضف إلى ذلك تفاوت المجتمعات الأوربية مقارنة مع المجتمعات المغاربية فيما يخص درجة التطور والنمو ومستوى التغيير وميادينه وتوفر أسباب القوة والحضارة عند الغربيين.

إن الظروف التي ميزت الحياة العامة عند المغاربة أعطت خلاصة هامة في معرفة الزوايا التي يمكن للمغاربة التعاون منها مع الغرب عامة .

إن المغاربي لم ترسخ لديه مجرد صورة واحدة عن الرجل الأوربي وذلك بحكم تعدد الإشارات في مختلف الحقول والميادين، بدليل التراث الذي تركه المغاربة من رسائل وقصص وأشعار ونثر.

لم تقتصر تلك الصورة على الجانب السلبي الذي يصف الأوربي بممارس القرصنة والمبشر والمستعمر والناهب والمستلب والغازي، بل كانت لدى المغاربة صورة أخرى عن الغرب من خلال المعمرين والمستوطنين الأوربيين، الذين كانوا يعيشون مع المغاربة تحت ستار التجارة أو التمثيل السياسي والعسكري والديني أو من المنفيين والأسرى والذين فضلوا البقاء في شمال إفريقيا بدل العودة إلى أوطانهم الأصلية.

كانت الصورة المكتسبة التي يؤكدها التراث المغاربي منطلق ومنبع المعاملات والعلاقات وعلى ضوئها يتم تقييم تلك العلاقات و تحديدها.

وعلى ذلك يمكن أن نستخلص بأن دور تلك الصورة التي تحدد بفعل العوامل المذكورة، كان لها الوزن الكبير في التأثير البالغ على مختلف العلاقات والروابط التي

جمعت بين شعوب الضفتين كما كان لها دورها في تشكيل تراث مغاربي من شعر ونثر وخطب وأدعية ورسائل وغيرها.

ومن هذا تعتبر الصورة أسهل المفاتيح التي يمكن من خلالها فهم كثير من الأحداث التاريخية وتحليل العديد من الرموز الأنثروبولوجية وشرح التحولات الاجتماعية وتحديد طبيعة العلاقات التاريخية.

ونسأل الله التوفيق في كل ما سبق، فإن أصبت فمن الله، وإن أخطأت فمن نفسي، والله هو المستعان.

ارتأينا في هذا الفصل أن نورد جملة من الملاحق تثبت صحة ما ذهبنا إليه وتدعم الحجج التي تم تقديمها وتحقق الفرضيات التي تبنيناها.

الملاحق

ملحق رقم 01

ياساكني الغرب الجهاد الجهاد — فالكفر قد شارككـــــــــــــم
والشرك قد ناصب إشراكه — مستعبدا بكيده للعبــــــــــاد
يا حماة الدين ما صبركـــــم — والمشركون يطلبون البـــــــلاد
ما هده الغفلة عن ضدكـــــم — وانتم في الحرب أسد الجــلاد
إن بني الأصفر أعداءكـــــم — أطمعهم نومكم في الســـــواد
ويا أباة الضيم هل نهضـــة — تسربل الكفر ثياب الحـــــداد
قوموا لنصرة دينكم قومـــة — تحطم أهل الشرك حطم الجراد
واسطة المغرب قدُ حازها — والأمر جد والبلا في ازديـــاد
حوى الجزائر و وهرانها — وراع حاضر بدلك وبــــــــاد
مصائب صبت على معشر — يبكي من الإشفاق منها الجماد
يكاد يقضي المرء من حرها — على حشاه وتذوب الصـــــلاد
إخوانكم دينا وجيرانكـــــم — أضحوا رعايا الشرك بين اعاد

ساموهم هونا وازروا بهم — في الدين حتى ركنوا الارتداد

وطمعوا فيكم فكونوا يدا — فان تثاقلتم فانتم مـــــــــراد

قد ملكوا الأحرار من غدرهم — ودللوا بالكره صعب القيـــــاد

من حلقت لحية جار لـــه — فلتكونن لحيته في اعتـــداد

فالشرك كالنار إذا لم تزل — إذا لم يعجل ففوها في اتقـــاد

إن لم تناجزوهم عاجلا — تعاظم الضـــــــر وزاد وزاد

لا يستميلنكم لينــــــه — فالميل للكفار كفر وعنـــــاد

من حكم الشرك على نفسه — جر لها الكفر الصريح وقـــاد

وإنما هدنته فتنــــــــة — وسلمه سلم كيد يقـــــــــــاد

ولا يغرنكم عهـــــــده — فالغدر من طباعه يستفـــــاد

سلوا الجزائر وما قد لقوا — من غدره من بعد عهود شداد

ملحق رقم02

الرئيس: من أنت ؟

أبو معزة : أنا أبو معزة.

الرئيس: قاتلت فرنسا ؟

أبو معزة: لكونها دولة طاغية معتدية علينا.

الرئيس : المتران العرب انضموا إلينا ؟...

أبو معزة: هؤلاء العرب قسمان الأكثر منهم أبرياء يخافون على حياتهم، والأقلية سفلة خونة لا يبحثون إلا عن إرضاء الحاكم مهما كان، وعن توشيح صدورهم بشريط أحمر

الرئيس: ماذا تنتظر منا ؟...

أبومعزة : لا يهمني ما أنتظره منكم.

الرئيس: وإذا أطلقنا سراحك ماذا تفعل ؟

أبو معزة: أعود للجهاد في سبيل الله

الرئيس: وإذا قتلناك؟

أبو معزة: سأتقدم لله ناطقا بالشهادتين.

الرئيس: وإذا سجناك؟

أبو معزة : سأقضي أوقاتي عابدا طالبا من الله أن ينصر العدل على الظلم.

الرئيس: لماذا تكرهنا؟

أبو معزة: لأنكم ظلام طغاة[1]

---

[1] نص الحوار الذي جرى بين أبو معزة ورئيس المحكمة العسكرية بعد انهزامه والقبض عليه بتاريخ 1847

ملحق رقم 03

رسالة استغاثة أسيرة مغربية بمالطا

الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد؛

الحمد لله مسبب الأسباب، ومعتق الرقاب، وخلق آدم وحواء من التراب، وجعل العلم يخط بالصواب، والقرطاس رسالة بين الأحباب... إلى سيد مولاي سليمان سلطان الغرب نصره الله وناصر عساكره آمين.

السيدة لالة فاطمة بنت سيد محمد بن عبد الرحمان كثير السلم وكل مسلم ألف سلم وسلم أعلى سيد مولاي سليمان.

من عند زوجها مولاي محمد بن الحاج اعلى السبيع كثير السلم وكل سلم يتبعه ألف سلم واليوم يا سلطان الرحم الله ينصرك ويزيد في أيامك إنها من إلى جابون إلى مالطا وعملون في الكرنتين ابقيت فيها اربعين يوم بعد دلك كيف كملت الربعين يوم الداوني الى عند السلطان امتاع مالطا وقال انت منين يا وليه؟ وقلت له يا سلطان انا من الغرب، بنت من انتي؟ وقلت له انا بنت السلطان مولاي ادريس ما ننكرشي اصلي وقريبت مولى محمد، وقلت لو يـٔ سلطان انا ما ننكر اصلي انا بنت السلطان مولى ادريس واليوم انا من ان جيت فيدك ما جيتش بغرض اعمل كيف ما تحب فيا جيت بالسيف عليا

وبعد دلك قلت لو يا سلطان اذا جابني الله في يدك تبقا انت تحكم عليا خير من غيرك وبعد دلك كلم المركانتي الى جانبي وقال له هدا الشريد تبق عند لا تنباع ولا تنشر حتى يظهر اناس لا هيا ولا زوجها اجملهم في دار وحد بعد دلك يا سيد اعطان الشهر جوزت امليح يا سيد الله عمرك ويزيد في ايامك.

وقال لي الروم الى انا عند انت عندك لمن تكتبي الورق؟ وقالت لو انا عند دار النبي دار سيدي مولاي سليمان الله ينصر ويطول عمركم ويزيد في ايامك راه كل ما جربيا انعود لك في الوقت واليوم الروح الى انا عند يقعد على الكرس وايحط الدويا في حجر امتاع ويشرب الدخان في حجر والدخان طالع من حجر وجه وقلت لو عدو الله اعلاش تشرب الدخان في حجر وقال انت امتاع وخادمها هم في الثلثة.

وبعد دلك سمع الجران العيطان امتاع وبعثل اجا وشد الخادم واعطها العمر وجاب المصلح وطللها بالنجس جاش وبعد دلك قالت لو الخدم انا ما نديش يا عدو الله النجس لاله ونشد الروم المكنس حاش وجه سيد بالنجس وطلها ليعلى وجه وقال لي اعلي تقول انا منش سيد وقلت لو يا عدو الله انا سيد مولى سليمان الغالي ينصر وينصر عساكر يا عدو الله.

واليوم يا سيد الله ينصرك ويطول عمر اللي انت ابحثت خديمك بعث اعلى يد الرايس انتاع اصبانية والرايس انتاع اصبانية هو يبعت الى مالطا الى دار نباف خديم سيد محمد الله يرحم ويسلم على سيد مولى سليمان الله ينصر من عند المجاهدين الرياس

والبحرية كلهم واليوم يا سيد مولى سليمان الله ينصرك ويطول عمرك احنا ما عندنا حد غير الله وثم انت واحنا نطلب الله فضل وفضلك راه جدك يشفع في الآخرة وانتم تشفع في الدنيا الله يطول عمركم[1].

ملحق رقم04

رأي الداي في أحداث الثورة في فرنسا

الجزائر في نوفمبر 1791

أننا قبل كل شيء نقوم بأداء الدين الذي تستوجبه الصداقة بالسؤال عن صحة جلالتكم ونرجو من الله أن يبقي دائما متمتعا بالجلوس على العرش الذي يزينه بخصاله الحميدة وبلذات عهد مبارك ومجيد وهي المنة التي نطلبها من الله ببركة عيسى بن مريم الذي له شرف الكلام مع الله خالق الكون.

إننا نعرف السبب الذي عطل وصول السفينة التي أمرتم بتجهيزها وإننا لا نجهل بكونها نجمت من جراء الاضطرابات التي أثارها بعض من ذوي النفوس الشريرة والنوايا الخبيثة في إمبراطورية فرنسا لزرع الخلاف والشقاق في المقاطعات، لم يحدث شيء من

(1) دراسات في تاريخ المغرب وإفريقيا الشرق ص178.

هذا القبيل في فرنسا منذ الأحقاب الغابرة. إنه شيء غريب هذا التجمع للمشوشين والاضطرابات التي أحدثوها وخروجهم عن الطاعة وإنه ليستحيل علينا أن نصف لكم مبلغ السرور والغبطة التي شعرنا بها عندما علمنا بالخبر السعيد أنه بفضل القدرة الإلهية وعونه الخاص كل شيء عاد إلى مجراه.

ملحق رقم 5

أشكال المقاومة والثورات والانتفاضات والهجرات	تاريخ بداية و نهاية المقاومة	المناطق ، الأمكنة ، النواحي ، القبائل	الزعماء ، القادة ، الزوايا
ثورة الأمير عبد القادر	22نوفمبر 1832 23ديسمبر 1847	التيطري (المدينة)، سيابو ، الزيبان (بسكرة، الصحراء ، مليانة، معسكر تلمسان...)	الأمير عبد القادر (القادرية)
مقاومة أحمد باي	1837- 848	قسنطينة (بايلك الشرق)	أحمد باي
ثورة بومعزة	1845 13 أفريل 1847	الظهرة، وادي شلف، لوارشنيس، التيطري، الحضنة، مستغانم، أولاد رياح، السبايح ...	محمد بن عبد الله الملقب بـــ بومعزة (الطيبية)
مقاومة الزعاطشة	1848 –نوفمبر 1849	الأوراس(وادي عبدي)و الزيبان، الزعاطشة (بسكرة)، بوسعادة ...	بوزيان (مرابط)الشريف بو عمار
مقاومة الأغواط وتوقورت	4 ديسمبر 1852 29 نوفمبر 1854	الأغواط، توقرت، اتحاد الأربعاء...	الشريف محمد بن عبد الله بن سليمان
ثورة القبائل	1851 11يوليو 1857	منطقة القبائل، بني ايراثين، بني عيسى، فليسة الزواوية، سيابو، ايشريدان، أيت تاوريت الحاج...	لالا فاطمة الشريف بومعزة
ثورة الأوراس	1858	الأوراس، البلازمة ، الوادي الكبير ...	محمد بن عبد الله
ثورة بني سناسن	1859	بني سناسن. أنغاد، تلمسان. الغزوات.	
ثورة أولاد سيد الشيخ	مارس 1864 – 1880	واحة البيض سيد الشيخ، جبل عمور، التيطري،مدن الميزاب ، صور الغزلان، تيارت، فرندة، عين الماضي، الشعابنة، متليلي، ورقلة، الظهرة، بني مناصر، الحساسنة، حميان مشرية ،أولاد خالد، سعيدة، فليته، غيلزان، أولاد نهار انغاد دوي منيع، جعافرة تيميمونّ، ادرار بني سناسن، مغنية، سبدو، ماغورة، العريشة ، بني واسين ، العمرية، الهقار، أولاد يعقوب، السيرسو، الجلفة، سيدي علي بن يوب (بلعباس)، بني غيل ...	سليمان بن حمزة، أحمد بن حمزة ، لعلى، بن ناصر، بو عازيز ولد العربي، سي قدور ولد حمزة، سي لزرق ، سي معمر بن الشيخ بن الطيب، (زاوية أولاد سيدي الشيخ)
ثورة جنود الصبايحية	20جانفي 1871 نهاية جانفي 1872	سوق أهراس ، الطرف (القالة) حنانشة	
ثورة أولاد عيدون	14فبرير 1871	قبيلة أولاد عيدون، المليلية	
انتفاضة المقراني والرحمانية	14مارس 1871 20جانفي 1872	بورجبوعريريج ، مجانة ، العلمة، باستور برج منايل ، دلس تيزو وزو، دراع الميزان ، عين الحمام، سطيف، باتنة صور الغزلان، الحضنة، توقرت، ورقلة، حجوط، شزشال، بني مناصر ثاكيكونت، سدوق جيجل، ميلة، المليلة ، اشريدان، بني عباس بجاية ...	المقراني ، الشيخ الحداد، سي عزيز بن محمد بن بلقاسم ،خديجة بنت بلقاسم، مالك بركاني، السعيد بن بوداود، بومزراق (الرحمانية)
مقاومة العمري	26 مارس 1876 29 أفريل 1867	واحة العمري ، الزيبان ، قبيلة بوعزيد	الشيخ محمد بن يحي بن عياش (مرابط)
ثورة الأوراس	30 ماي 1876 9 جوان 1879	الحمام (الأوراس)، أولاد ثاغة ، أولاد داود ، بني بو سليمان ، بني و جانة ، الحالة	محمد أمزيان بن عبد الرحمان
مقاومة بوعمامة	22 أفريل 1901 ماي 1883	عين الصفراء، تيارت ، فرندة . سعيدة ، أحرار الشراقة، عين صالح ، توات ، قورارة ، (دلدول)بنمي عباس كرزاز .	بوعمامة بن عربي بن تاج (السنوسية ، الطيبية ، الكرارية).
ثورة عين التركي (مليانة – مارغريت)	26 أفريل 1901 ماي 1901	مليانة، قبيلة الريغة	يعقوب ابن الحاج

قائمة المصادر والمراجع

-المراجع العربية

أ-الكتب

1- ابن الشيخ؛ التلي:
دراسات في الأدب الشعبي
المؤسسة الوطنية للكتاب 1983.

2- ابن محمد الجيلالي؛ عبد الرحمن:
تاريخ الجزائر العام _ الجزء الرابع
ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر.

3- ابن نعمان؛ أحمد:
التعصب والصراع العرقي والديني واللغوي لماذا وكيف؟
شركة دار الأمة للطباعة والترجمة والنشر والتوزيع الجزائر 1997.

4- بن يوسف؛ الشيخ سليمان داود:
حلقات من تاريخ المغرب الإسلامي
مطبعة أبوداود الحراش _ الجزائر 1993.

5- بوحوش؛ عمار:
التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962
دار الغرب الإسلامي بيروت 1997.

6- بوعزيز؛ يحيى:
- ثورات الجزائر في القرن التاسع عشر والقرن العشرين
قسنطينة الجزائر 1980.
- طلوع السعد السعود في أخبار الجزائر ووهران وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر للآغا بن عودة المزاري
تحقيق ودراسة _ الجزء الأول والثاني
دار الغرب الإسلامي لبنان.

- علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوربا 1500-1830
ديوان المطبوعات الجامعية.
- مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية
ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر.
7- بيشي؛ سلامة :
ثورة ابن غداهم
الترجمة العربية الدار التونسية للنشر 1967.
8- التميمي؛ عبد الجليل:
بحوث ووثائق في التاريخ المغربي الجزائر وتونس وليبيا 1816-1871
الطبعة الثانية
منشورات ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1985.
9- الخطيب؛ إبراهيم يس:
وعودة؛ محمد عبد الله:
تاريخ العرب الحديث
الأهلية للنشر والتوزيع 1989.
10- رزوق؛ محمد:
دراسات في تاريخ المغرب وإفريقيا الشرق
الدار البيضاء 1991.
11- ركيبي؛ عبد الله:
الشعر الديني الجزائري الحديث
الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الطبعة 1.
12- عبد القادر زبادية
الحضارة العربية والتأثير الأوربي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء
دراسات ونصوص
المؤسسة الوطنية للكتاب 1989.

13- الساحلي؛ حمادي:
المغرب العربي قبل احتلال الجزائر
سراس للنشر تونس 1994.
14- سعد الله؛ أبو القاسم:
- أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر
_ القسم الأول _ الطبعة الثانية
الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1981
- الجزائر وأوربا
ترجمة لكتاب: جون ب.وولف
المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية. الجزائر 1986.
- الحركة الوطنية الجزائرية
_ الجزء الأول _
المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1992.
15- سعيدوني؛ ناصر الدين:
النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية
الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1979.
16- شيخو؛ الأب لويس:
تاريخ الآداب العربية (1800-1925)
منشورات دار المشرق بيروت 1991
17- صالح السيد؛ فؤاد:
الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا
المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1985.
18- صالح المراكشي؛ محمد:
الأيديولوجية والحداثة عند رواد الفكر السلفي
دار المعارف للطباعة والنشر.

19- الطمار؛ محمد بن عمرو:
- تلمسان عبر العصور دورها في سياسة وحضارة الجزائر
المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1984.
- الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج
الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1983.
20- عبد الستار؛ لبيب:
التاريخ المعاصر
الطبعة الخامسة دار المشرق ش م م بيروت 1983.
21- العربي؛ إسماعيل:
مذكرات أسير الداي كاثكارت قنصل أمريكا في المغرب -ترجمة-
ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1982.
22- فركوس؛ صالح:
الحاج أحمد باي قسنطينة (1826-1850)
ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1993.
22- مؤنس؛ محسن:
تاريخ المغرب وحضارته من قبيل الفتح الإسلامي إلى الغزو الفرنسي _ المجلد الثاني والثالث
العصر الحديث للنشر والتوزيع لبنان 1992.
23- المدني؛ أحمد توفيق:
ذخائر المغرب العربي _ مذكرات الحاج أحمد الأشرف الزهار -تحقيق-
الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر 1989.
24- المعوش؛ سالم:
- الأدب العربي الحديث نماذج ونصوص
دار المواسم للطباعة والنشر والتوزيع بيروت 1999.
- صورة الغرب في الرواية العربية
مؤسسة الرحاب الحديثة بيروت _ لبنان 1998.

25- الهنداوي؛ محمد إحسان:
الحوليات الجزائرية
العربي للإعلام والنشر والطباعة والتوزيع
دمشق 1977.
26- ولد خليفة؛ محمد العربي:
الجزائر المفكرة والتاريخية أبعاد ومعالم
شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع.

ب-المجلات

1- مجلة الدراسات التاريخية
معهد التاريخ جامعة الجزائر العدد الأول 1986.
2- مجلة العلوم الإنسانية
منشورات جامعة منتوري قسنطينة
العدد 11 جوان 1999.

ج- المعاجم

- معجم مصطلحات التحليل النفسي
ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر الطبعة الأولى 1980.

-المراجع الأجنبية

1- HENRRY ; Garrot :
Histoire générale de l'Algérie,
Alger.
2- Littérature générale et littérature comparée,
minard (coll. Situation), Paris 1968.
-Dictionnaires :
1- FIDEDA; Pierre :
Dictionnaire de la polychanalyse,
librairie Larousse, Paris 1974.
2- BROUSSELON ; Savaride :
Le dictionnaire mondial du commerce,

الفهرس